Coptology

بنوة الإبن

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

مقدمة

هذه دراسة موجزة تردُّ على سؤالٍ نسمعه من آنٍ لآخر: هل المسيح هو ابـــن الله أم هو الله؟ لم تُكتب دراسة شاملة موجزة من قبل، ولا زالت كلمـــة "ابـــن الله" غامضة بعض الشيء.

لعل هذه السطور القليلة تجعل هذا الموضوع الحساس والدقيق معروفاً بشكلٍ أوفر.

دكتور

جورج حبيب بباوي

الفصل الأول

هل المسيح يسوع، هو ابن اللّه، أم هو اللّه؟

سؤالٌ نسمعه تقريباً كل يوم، وفي كل المناسبات. وحَسَب الصياغة نفسها، وللصياغة سحرٌ خاص، فإن كلمة "ابن"، وكلمة "الله" تبدوان كما لو كان لكلٍّ منهما موضوعٌ مستقل لا علاقة له بالآخر. ويبدو أيضاً -نتيجة طول استعمال اسم الجلالة "الله"- أنه لدينا نوعٌ من التعارف العام غير المحدد بمَن هو الله.

وفي هذا السياق، ننبه إلى أن ثمةَ إشكاليةٍ كبرى لا يمكن حلها، رغم محاولات السابقين منذ عصر الكتابات المسيحية، وهي أن موضوعَ الأُلوهةِ، حقيقةً، موضوعٌ غير فلسفي، وصَدَقَ أكليمنضس السكندري بقوله: "نحن نعرف ما ليس الله؛ لأن الله ليس من الكائنات التي يمكن دراستها وتحليل صفاتها ومقارنته بغيره من الكائنات الأخرى". فـ "نحن نعرف ما ليس الله"، أي أننا نعرف ما هو منظورٌ ومعروفٌ، ولكن السؤال: مَن هو الله؟ هو سؤالٌ تجيب عليه أسفار الديانات التي تؤمن بالله كعقيدة مستعلَنة، لا كحقيقة علمية مادية منظورة قابلة للتعريف أو النقاش؛ لأننا نواجه ما ليس له وجودٌ محسوس، وما يُدرَكُ "بالحدس"، أو بما يمكن أن نسميه "الشعور أو الحس"، وهو عودة إلى ما سبق وذكرناه في البداية من أنه موضوعٌ شخصيٌّ"، وهو ما أشار إليه أكليمنضس السكندري.

لا يمكن تعريف الله؛ لأن الله ليس نظريةً أو فكرةً، أو لأنه كائنٌ منظور، بل هو يعلو. "وما هو ليس الله"، هو في أغلب الأحوال ما عَرَفَته الانسانية باسمٍ قديم هو "الوثنية"، أي تعدد الآلهة في أساطير القدماء، تلك الآلهة هي الصور المتعددة للإنسان

نفسه، وإسقاط الإنسان لكيانه وأحلامه على ما يراه ويرجوه ويتمناه.

تاريخياً، لم تعرف الوثنية إلهاً واحداً، بل عدة آلهة. وإذا كان هناك في الوثنية إلهٌ كبير مثل "رع"، أو غيره، فهو واحدٌ من كثرة.

فإذا كان الأمر كذلك، يبقى لدينا الباب الوحيد الذي يجب أن ندخل منه، وهو باب الأسفار المقدسة، وما تقدمه الديانات التي تؤمن بالله.

ما هو خاصٌّ بالمسيحية، ولا تشترك فيه أي ديانة أخرى:

عندما نسمع لفظ الجلالة "الله"، فإننا نفهم على الفور أن المسيحية بالذات لا تقدِّم "الله"، بل "الله الآب". لأنه لا يوجد لدينا في التعليم المسيحي الصحيح، أي التعليم الأرثوذكسي، أيُّ خطاب عن "الله"، وإنما ما لدينا هو خطابٌ خاصٌّ عن "أبوة الله"، "الله الآب". وبقية التعليم: "الله الآب أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح" حسب التسليم الكنسي الذي أخذناه من الليتورجية.

إذن، "الله" هو "الآب"، وكلُّ حديثٍ عن الله بدون تعريف الله كآب، هو حديثٌ شبه مسيحي، ولكنه ليس بالضرورة مسيحياً.

"الآب" حقيقةٌ كيانيةٌ قبل أن تكون اسماً:

"الوجود كله يسبق الأسماء كلها"، هكذا شرحَ أثناسيوس العظيم بشارة الإنجيل. الكائنُ يوجد أولاً، وبعد ذلك يُعطى اسماً. وهنا بالذات، تظهر دعوة الإنجيل، أي البشارة: إن الله الآب هو حقيقة يعبِّر عنها لفظٌ، والحقيقةُ سبقت اللفظ. وهذا عكس ما هو معروف عند الهراطقة، فقد كان لدى أريوس وأتباعه مشكلة، وهي أن الأبوة في الله تقتضي وجود "زمان لم يكن فيه الابن كائناً" (راجع القديس أثناسيوس. الرد على الأريوسيين المقالة الأولى ٢٨، ٣٠). وهنا ظهرت المشكلة الأولى في شكلها

العقلي، وهي علاقة الاسم بالكيان. كان أستاذنا د. وهيب عطا الله يقول إن عبارة "الله موجود"، تنطوي على خطأ لاهوتي، وهو أن كلمة "موجود" اسم مفعول، وتعني أن هناك مَن أوجد الله، والله لم يُوجده أحدٌ، بل هو خالق الكل، ولذلك كان اختيار لفظ "الكائن"، وهو أحد مفردات الليتورجية، ضروريٌ حتى لا نصف الأُلوهة بأنها مخلوقة. ولكن تبقى حيرة الأريوسيين في عدم فهم العلاقة بين الاسم والكيان الذي يخصُّ الاسم. ففي المسيحية الاسم والكيان حقيقة واحدة، وأن الكيان يسبق الاسم، وأن الاسم والكيان يجب أن ينطبق كلاهما على الآخر، فلا اسم لمن لا كيان له، وأن الأسماء لا تخلق الكيان، بل الكيان هو الذي يحدد معنى الاسم. وأن أسبقية الكيان على الاسم تعود إلى استعمال الإنسان ونظرته إلى ما هو كائن؛ لأن الأسماء لا تخلق ما هو كائن، بل تعرِّف ما هو كائن. وعلى هذا الأساس، فإن أبوة الآب لا وجود لها إلا بوجود الابن، أو كيان الابن، فلا آب بدون ابن.

إذن، الأبوة في الله هي "الآب"، أو حسب الإصطلاح الدقيق هي "أقنوم". وتحليل الأصل اللغوي والتاريخي لكلمة "أقنوم" جيدٌ ونافعٌ جداً، ولكن هذا يقع خارج اهتمامنا الآن، لذا نكتفي بالقول بأن الأقنوم هو "تخصيص"، هو الابتعاد عما هو عام ومشتَرَك، لتأكيد ما هو خاص وشخصي وذاتي، لا يشترك فيه آخر، وهو ما حرص عليه القديس باسيليوس في شرحه لاستعمال كلمتي "جوهر"، و"أقنوم" في الرسالة رقم ٣٨ إلى أخيه غريغوريوس والرسالة رقم ٢١٤.

هنا يظهر الرد الأول على السؤال: هل المسيح هو ابن الله؟ والجواب نعم؛ لأن "أُبوَّة الله" هي أُبوَّةٌ في كيان الله، هي ما تجعل الله "الآب". وهذه الحقيقة الكيانية تجعل للآب ابناً، ويصبح كيانُ الابن ليس لفظاً، بل استعلان حقيقة الحياة الخاصة لله على أنه الآب والابن. الأصل أو الآب، والابن. وهو استعلانٌ خاصٌ بالمسيحية؛ لأن الابن جاء إلينا من عند الآب لكي يبشِّرنا بالإنجيل أو بشارة الفرح، وهي أن الله ليس خالقاً فقط، بل هو آبٌ لنا، وأن أُبوَّته هي حقيقةٌ في كيانه، فهي ليست لقباً شرفياً، ولا هي اسم بلا كيان، ولكنها أبوة لكيان هو الابن أو أقنوم الابن الذي جاء بالتبني للبشر

ودعانا لأنْ نكون أولاد الله: "أمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله" (يوحنا ١: ١٢). وعاد الإنجيلي ليؤكد أن هذه البنوة ليست ثمرة زواج: "الذين وُلِدوا ليس من دم ولحم"، ولا هي من النظام المخلوق، ولا بمشيئة جسد، أي بحبلٍ وولادة، ولا من إرادة أو مشيئة إنسان (يوحنا ١: ١٤)، بل من الله.

وعندما نقول إن الابن هو أقنوم، فهذا ينفي عن الذين نالوا التبني أن يكونوا أقانيمَ في الثالوث؛ لأن الابن هو أقنومٌ خاص؛ ولذلك "دُعيَ الابن الوحيد" (يوحنا ١: ١٤).

البنوة لله الآب:

هي **أولاً**: بنوة الابن الوحيد، **وثانياً**: هي بنوة البشر. فمِن بنوة الابن، أخذنا نحن شركةً في علاقة الابن بالآب. ذات العلاقة الخاصة التي لا تخص إلاَّ الآب والابن وحدهما، وبدون هذه العلاقة الخاصة، لا يمكن أن يصير أيُّ إنسانٍ مهما كان، ابناً للآب. هنا يجب أن نقدم أسباب هذه الاستحالة من أجل الإيضاح:

١– هي علاقة خاصة بين أقنوم الآب والابن، وهي ليست علاقة مخلوقة يمكن لأيِّ مخلوقٍ أن يقتحمها ويدخلها كطرفٍ أو كشريكٍ.

٢– هي علاقة أزلية سابقة على خلق الكون والبشر وكل الكائنات. فهي علاقة الحياة الإلهية بما هو وبمن هو كائنٌ في الحياة الإلهية. ولذلك، الزمانيون من البشر مستبعَدون من هذه العلاقة، ليس فقط بسبب الفرق الزماني والأزلي في الكيان (الوجود)، لكن لأن الزماني من طبيعة مخلوقة من العدم لا تنتمي إلى الأُلوهة بالمرة.

وفي الوقت الحاضر نكتفي بما ذُكر.

إذن، جاء الابن من عند الآب لكي يعطي البشر بنوةً لله الآب، **وهذا يجعل الخطاب المسيحي عن الله خطاباً عن التبني، وليس خطاباً عاماً عن الله**، بل هو

خطابٌ خاصٌّ عن الله.

"ابن"، و"الله":

بات الآن الجزءُ الهام من السؤال واضحاً بقدر أكبر؛ لأن الابن هو ابنُ الآب، ولا يمكن أن يكون الابن هو ابنُ الآب وله طبيعةٌ أخرى غير طبيعة الآب. ولذلك، من الأقوال المأثورة للمسيح يسوع نفسه: "كما أن الآب له حياة في ذاته (أقنومه) كذلك أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته (أقنومه) (يوحنا ٥: ٦). وأن يكون للابن حياةٌ في ذاته كعطية من الآب هو ما يشرح علاقة الآب بالابن، فهي علاقة محبة أقنومية، أي شخصية، وبالتالي لا يمكن أن يكون للابن طبيعةٌ أخرى غير طبيعة الآب، وبما أن الآب هو الله، فالابنُ كذلك هو الله، وهو ما جعل الرسول يسجِّل عن المسيح نفسه "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣).

هل يمكن أن يكون الابن "ابناً" و"الله"؟

والجواب هنا ليس معقَّداً، فطالما أن كلمة "الله" اسم الجلالة، هي اسم الآب، عندئذٍ يصبح السؤال في شكله الصحيح: هل ابنُ الآب هو مثل الآب؟ هل إذا كان الآب هو الله، يكون الابن أيضاً هو الله؟

والجواب: نعم، بكل تأكيد.

لكن، لماذا التمسك بهذا الإيمان؟

أولاً: لأن الإنسان دُعيَ لنعمةٍ أعظم، وهي التبني، وهي أعظم ما يقدِّمه الآب.

ثانياً: لأن هذه النعمة هي من الله، وليست من النظام الكوني، ولا من التوالد البيولوجي، بل هي شركة الإنسان في العلاقة الخاصة بين الآب والابن.

ثالثاً: لأن هذه النعمة هي المصير الأبدي لكل إنسان، وهو أعظم ما يمكن أن يُقال عن المصير الأبدي للإنسان، إنه ابنٌ للآب.

وعلى ذلك، يصبح الجواب على السؤال سهلٌ، طالما أن اسم الجلالـــة "الله" يعني الآب، ولا يعني "الله" بدون الأبوة.

الفصل الثاني

إشكالية إنسانية يسوع المسيح

هذه الإشكالية متعددة الأطراف، أي لها أكثر من طرفٍ واحد.

الطرف الأول: هو دونية الإنسان، إذ لا يليق بالابن أن يأخذ طبيعة بشرية؛ لأن الإنسانَ -في اعتقاد البعض- حقيرٌ ودنيء.

الطرف الثاني: هو عملية فهم الاتحاد بين طبيعتين مختلفتين تماماً كلٍّ عن الآخر، وهو ما دار حوله صراع دام حوالي ٥٠٠ سنة من تاريخ الكنيسة، تراه في إنكار إنسانية المسيح تماماً، أو إنكار أُلوهيته، أو ذوبان الناسوت في الأُلوهة، وهي الاختيارات الثلاثة لكلٍّ من الغنوسية – الأريوسية – الأوطاخية.

الطرف الثالث: وهو لا زال مجهولاً يتستر خلف اعتراضاتٍ عقلية تبدو حسنةً، ولكنها سقيمة، تتبدى في عدم فهم المحبة التي تعطي وتضحِّي. فعلى الرغم من أن تاريخ الإنسانية في كل أصقاع الأرض، قام على العطاء والبذل الذي يقدمه كل فئات المجتمع من أول الجنود في ميادين الحرب، إلى المدرسين في المدارس، إلى الأطباء والممرضات والآباء والأمهات والزوجات والأزواج والأبناء والبنات، حيث لا قيام لحياة اجتماعية حسنة فعالة بدون تضحية، إلاَّ أنه عندما تصل التضحية إلى باب الألوهة، يستغلق الفهم وكأن التضحية والمحبة هي سمات الحياة الإنسانية فقط!!

الطرف الرابع: هو افتراض تعالي الله لدرجةٍ تجعله يأنف من الإنسان، وكأن خلق الإنسان من تراب الأرض كان خطأً أقدَمَ الخالقُ عليه بعفويةٍ، دون أن يعرف

مقدماً نتائج هذا الخلق، على الرغم من أن كل ما في حياتنا من طعام ومسكن وما نملكه من آلات، هو أصلاً من تراب الأرض.

الطرف الخامس: هو محاولة حماية الله إذا دخل حياة الإنسان عن طريق لحم ودم الإنسان، وكأن الله من الضعف بحيث يحتاج إلى من يحميه من الحياة الإنسانية.

وهناك أطرافٌ أخرى لا داعي لذكرها الآن، ولكن لا يغيب عن الإدراك، أن كل ما ننكره هو كل ما نخاف عليه أو نخاف منه، ولا نحب أن نراه في حياتنا. ولذلك، يكون الإنكار في هذه الحالة هو خير وسيلة لتجنب المشكلة.

وعلى سبيل المثال، إذا استطعت أن تمسك قرون حيوان يهاجمك، أمكنك السيطرة عليه، بل وذبحه أيضاً. وهكذا، إذا بدت هذه القرون الخمسة متوحشة مستعدة للهجوم العقلي، فإن تجنبها يأتي بفائدة، ولكن يبقى الحيوان، وهو -في حالتنا- عبارة عن كمٍّ هائلٍ من موروثٍ ثقافي وإنساني تمكَّن من تأصيل عادات وقيم دخلت الأمثال الشعبية، ومعظمها يسير في اتجاهٍ واحدٍ، هو دونية الإنسان. وعلى ذلك، فالاعتراض على بنوة الابن للآب، ليس اعتراضاً فلسفياً كما يبدو، وإنما هو اعتراض النفي والاستنكار لما هو غير مألوف في عالم الإنسان، وما يبدو أنه متعارضٌ مع الحياة الإنسانية.

وكلمة "الابن" لها رنينٌ خاص منذ زمن أريوس، "الآب" أعظم وأكبر، و"الابن" أقل. وغير ذلك من مقارنات جعلت القديس باسيليوس يرد على الفهم الأريوسي للقول: "أبي أعظم مني"، بأن المقارنة لا تجوز منطقياً إلاَّ بين الطبائع المتشابهة، ولا تجوز منطقياً بين طبائع مختلفة، مثل مقارنة الحصان بالانسان أو الحديد بالماء. غير أن مشكلة أريوس هي مشكلة سياسية وحضارية قبل أن تكون لاهوتية أو فلسفية؛ لأن هرمية السلطة في الإمبراطورية الرومانية تهتز بشكل خطير إذا كان الابن من ذات المقام والحياة والمجد الإلهي الذي للآب، وهو قد تجسد وصار البكر بين أخوة كثيرين (رو ٨: ٢٩)؛ فإذا صار الإمبراطور يحكم "أخوة الرب"، فبالتالي يتوجب

تحجيم السلطان المطلق، وهنا تهتز الحضارة القائمة على توزيع السلطة من الأعظم إلى الأدنى؛ لأن الأعظم هو القوة والحكمة التي لها سيادة ونفوذ، بينما ليس على المحكومين إلا الخضوع.

هل يمكن حل الإشكاليات السابقة؟

في الحقيقة لا يمكن حل إشكالية دونية الإنسان، ولا إشكالية اتحاد الألوهة بالإنسان، فكلاهما كتلة واحدة، وإن كان يمكن بالتعليم تعديل فهم المحبة الإنسانية، ولكن يجب أن ننتبه إلى أن المحبة تظل تفتقر إلى المثال وإلى الحدث الحقيقي الذي أعلن المحبة بدون شروط أو قيود، وبذل ذاته بدون أن ينتظر المكافأة.

فهل معنى هذا أن الإيمان بالمسيح في مجمله، أي كله، هو ضد المعرفة الإنسانية والفهم الإنساني؟

بكل تأكيد لا؛ لأن الاشكاليات هي الموانع، والموانع من الثقافة والعادات والقيم والمُثُل التي تراكمت عبر العصور.

- فالإيمان بالمسيح كإنسانٍ فقط، وكمعلِّمٍ أو نبيٍّ أو مُصلحٍ اجتماعي لا مشكلة فيه، فما أكثر العظماء والقادة الذين كان لهم أثرٌ واضحٌ وتأثيرٌ كبير على حياتنا الإنسانية لأنهم كانوا قد شقُّوا طريقاً واضحاً في صخور الخوف والشك والريبة والكراهية والتعالي على الآخرين، وقادوا مسيرة التحرر والتقدم. وقد ترك الصَّلبُ – على سبيل المثال– على الثقافةِ، علاماتٍ واضحةً، من هذه العلامات:

- الألم من أجل التقدم.

- البذل من أجل التحرر.

- المحبة الغافرة التي تحرر من العداوة.

* قال لي أحد رهبان الأسقيط: يجب أن تؤمن بنفسك كإنسان قبل أن تؤمن بالمسيح. وعندما سألت عن القصد من هذه العبارة قال لي: يجب أن تؤمن بأنك إنسانٌ، وأنك تريد أن تكون إنساناً مهما كانت الظروف والأحوال التي تحيط بك لكي تستطيع الإيمان بالمسيح.

ونحن، إذا بدأنا بالإنسان نفسه، وهو الجانب المحسوس في حياة يسوع، فإننا سوف نرتقي إلى ذلك الإنسان الكامل الحر الذي لم يَعِش لأجل ذاته، وهو يسوع نفسه؛ لأن هذه هي الصورة الإنسانية لله نفسه.

إستعلان الألوهة في يسوع المسيح:

وُلِدَ يسوع وعاش كإنسان، وأحدث تعليمه زلزالاً كبيراً في اليهودية، وليس هنا مجال شرح أو تقديم التعليم الذي صَدَمَ به يسوع المجتمع اليهودي، ولا زال يصدم به كل مجتمع. بل، إذا دققنا النظر في بعض الأقوال كما وردت في الأناجيل، نجدها تأخذ الحياةَ نحو منعطفٍ مختلف تماماً عما هو مألوف عند الأنبياء:

* "مَن بذل ذاته من أجلي يجدها ومَن حفظ ذاته يفقدها" (متى ١٠: ٣٩)، أو بعبارة أخرى تحمل نفس المعنى: "مَن أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومَن يبذل نفسه من أجلي فهذا يخلصها" (لوقا ٩: ٢٤). لاحظ أن ترجمة فان ديك لنص متى ١٠: ٣٩ قد نقلت المعنى الحرفي، بينما يجب أن نفهم أن الرب عندما قال: "مَن وجد أضاع ومَن أضاع وجد" (حسب ترجمة فان ديك)؛ كان يعني أن إضاعة الحياة هي بالبذل وعدم الاحتفاظ بها، وهو ترياق النرجسية، البنت البكر للموت، أو عقدة الموت عند "فرويد"، أو "الخوف من الموت" -عند الآباء الشرقيين- الذي يدفع إلى الاحتفاظ بالحياة. "مَن يجد حياته"، أي من يسعى جاهداً للبقاء كما هو بدون تقدُّمٍ. ومِن هنا جاء حملُ الصليب، أي السير في طريق الخروج من الذات أو البذل لكي ينمو الإنسان حراً.

جاء هذا التعليم الفريد الذي لا مثيل له مؤكِّداً أن يسوع ليس مجرد إنسان، بل هو معلِّمٌ بالحياة، بحياةٍ حُرَّةٍ، وهي الحياة الحرة من الخوف، والحرة من عدم المواجهة مع ذلك الخوف الذي يشتت كل قوى النفس ويستعبد الإرادة.

وقد كشف يسوع عن دعوة الحرية التي تسير في اتجاهٍ مختلف عن اتجاه المجتمع في العظة على الجبل: "قد سمعتم إنه قيل للقدماء .... أما أنا فأقول لكم ...."، وما يقوله هو ويرد تحت كلمة "أنا"، هو إشراقُ الحرية في حياته الخاصة، وشعاعُ الألوهة الذي أشرق في إنسانيته.

الأساس المفقود الذي أدَّى إلى الإشكاليات السابقة:

ما فقدناه عبر سنوات بل قرون، هو إيمان الإنسان بأنه "صورة الله ومثاله" (تك ١: ٢٦). وعندما كُتِبَت هذه العبارة في سفر التكوين، كان العالم القديم قد غرق في الوثنية وعبادة الطبيعة. وبعد ذلك جاء المزمور الثاني ليقول إن الإنسان هو إله الخليقة أو الكون: "وضعته قليلاً عن إلوهيم" (مزمور ٨: ٥ حسب العبرانية)، ولَّما وجد البعضُ أن هذه العبارة خطيرة جداً، تُرجِمَت إلى "وضعته قليلاً عن الملائكة". ولكن، في كل الأحوال ما هو المقصود بكلمة "قليلاً"؟ هو "الصورة"، فهي دائماً ليست مثل الأصل، وتنقُصُ دائماً عن الأصل.

عندما فَقَدَ الإنسانُ إيمانه بأنه "صورة الله" حدثت ثلاثة تحولات كبرى:

التحول الأول: هو تحديد *Definition* كيان الإنسان تحديداً خارجياً *Adextra* أي بواسطة ما يقوم به من أعمال، أو بالانتماء إلى جماعة أو فئة، أو بعبادة الآلهة.

التحول الثاني: وهو التحول الذي نتج عن تحديد كيان الإنسان بشكل خارجي، أي نشأةُ نظام أخلاقي اجتماعي يقوم على الثواب والعقاب لكي يدفع

الإنسان دفعاً نحو البقاء في الجماعة أو الفئة التي ينتمي إليها، وبالتالي لم يعد الإنسان يحيا حسب الصورة الإلهية، بل حسب الصورة الاجتماعية.

التحول الثالث: وعندما وضعَ الإنسانُ لنفسه نظاماً أخلاقياً ارتضاه لنفسه، لم تعُد حياة الإنسان منفتحةً على الإله الحقيقي، بل على النظام الأخلاقي نفسه، فعاد الإنسانُ إلى كيانه الذي أُفرِغَ *Emptied* من الصورة الإلهية، والذي لَّما وجده فارغاً، خَلَقَ الأقنعةَ *Masks* لكي يستر به كيانه الضائع.

مِن هذه التحولات الثلاثة وُلِدَت دونية الإنسان وغيرها من عوائق كانت ولا تزال تحتاج لأكبر صدمة أو زلزال يضرب هذا الأساس الهش الذي تضخَّم بشكلٍ نراه في طقوس وعقائد الوثنية التي تساعد الإنسان على تغييب كيانه والاستمرار في فقدانه.

آليةُ التنقيح والرفض Redaction and Negation:

أولاً: كانت بشارة الإنجيل ومازالت هي أن "الكلمة صار جسداً". ولكن، وانطلاقاً من دونية الإنسان واعتماداً عليها، بدأ تنقيح هذه البشارة، وهو ما قامت به الشيع الغنوصية. والمقصود بالتنقيح هنا هو رفض التجسد *Negation* ورفضُ تنازل الله. وهذا الرفض ليس رفضاً فلسفياً، بل هو رفضٌ ثقافيٌّ حضاريٌّ: ثقافيٌّ حيث تسود ثقافة القهر والعبودية، وحضاريٌّ، حيث تسعى الحضارة السائدة إلى تكوين طبقة السادة والعبيد، وهو تقسيم لا يمكن أن يسمح بتجسد الله.

ثانياً: يشمل الرفض *Negation* كل ما هو إنساني وصالح وجيد من أجل إبقاء الله بعيداً تماماً عن الحياة الإنسانية الحقيقية، وذلك بأن يتم دائماً استنكارُ ما هو إنساني مثل الجسد والوجع والألم، والأهم: الموت؛ إذ كيف يموت الله مصلوباً؟ وهو ما ظهر في محاولة الغنوصية أن تقدم أناجيل نُسِبَت للرسل مثل إنجيل توما، ونشر نص مختصر لإنجيل لوقا، ورفض إنجيل يوحنا، فكيف يموت يسوع على الصليب إذا كان حقاً إلهاً، وكأن اختيار الصلب لملاشاة الموت هو اختيار مستحيل على الله.

البنوة والمساواة:

كلُّ ابنٍ مساوٍ لأبيه في ذات الطبيعة. صحيح أن هناك فارقاً زمنياً -على المستوى الإنساني- بين الأب والابن؛ لأن كل أب يسبق كل ابن، ولكن كل أب كان ابناً وكل ابن قد يصبح أباً. هذه الحلقة البيولوجية هي عماد وبقاء الجنس البشري، ولا يمكن أن يحل محلها حلقة أخرى.

لكن ماذا عن الله، وهو ليس كائناً مثل البشر "لا يلد و لم يولد"؟ فهل يمكن أن يكون له ابنٌ؟ والإجابة تجيء من الاستعلان الإلهي؛ لأن الله ليس له نظيرٌ أو شبيه أو معادِلٌ في عالمنا أو في كل الكون يسمح لنا بالإجابة بالنفي، أو حتى بالإثبات، إذا كانت هناك مقارنة.

وهنا لدينا نقطةٌ هامة، ألا وهي الخطاب الإنساني عن الأُلوهةِ. هل لهذا الخطاب قواعد أو منطق تجعلنا نؤكد أو ننفي ما يمكن أن يُقال أو لا يقال عن الله؟ والجواب هو إن تحول الخالق إلى مخلوق هو ما ينفي كل أشكال الأُلوهة. التحولُ دليلُ ضعف وخضوع الألوهة لكل متغيرات الحياة المخلوقة، هو ما ينفي أن يكون الله هو الخالق. لكن هل يمكن أن توجد بنوة في طبيعة الله، بنوة روحية طبعاً؟ والجواب يجيء ليس فقط من الأسفار، بل من الاختبار، وهو شهادة الذين عاصروا المسيح يسوع، وعاشوا مع ابن الله، لذلك كتب واحدٌ منهم:

"الذي كان من البدء

الذي سمعناه

الذي رأيناه بعيوننا

الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (١يو ١: ١).

وما هي كلمة الحياة؟ هي البشارة؛ لأن كلمة الحياة هي λόγος ζωύς وهي تعني الشهادة لما هو حادثٌ ومعروف، لا ما هو مجرد نص، هي تعني من سُمِعَ ولُمِسَ باليد، أي المتجسد. ولذلك، عندما يشرح الرسول ما هي كلمة الحياة، يقول:

"الحياة أُظهِرَت

وقد رأينا ونشهد

ونخبركم به" (١يوحنا ١: ٢).

ويؤكِّد بعد ذلك: "الحياة التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا"، لماذا؟ لأن "الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به؛ لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا" (١يو ١: ٣)، وهذه الشركة هي "مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١يو ١: ٣).

إذن، ما استُعلِن هو الحياة، ومقياس الحياة هنا هو المتجسد نفسه، أي ما أظهره المتجسد في حياته الإنسانية.

كيف استُعلِنت بنوة الابن للآب؟

لم تكن في حياة يسوع المسيح ازدواجية الخطاب والحياة. كانت كلماته هي حياته وكانت حياته هي كلماته. ومن السهل على أي قارئ، وهو ما فعله الكثيرون من قبل، أن يجمع الكثير من نصوص العهد الجديد لتأكيد أُلوهية الرب يسوع من معجزاته بشكل خاص، ومن استعلان محبته الخاصة للخطاة بشكل يتعارض تماماً مع القيم السائدة في زمانه، وهو ما جعل القيادات الدينية، لا سيما الفريسيين، يحقدون عليه ويفكرون في قتله، وهو ما انتهى به في النهاية إلى الصلب.

لكن النقطة الدقيقة جداً هي أن يسوع عندما وصف نفسه وعلاقته بالآب، سجَّل لنا بكل وضوح أنه لا ينسب نفسه إلى الله، إلى يهوه، بل إلى الآب؛ لأن اسم

"يهوه" مهما كان تاريخه وأصله اللغوي، لا يحتوي على أية إشارة ضمنية إلى أُبوة الله. وفي كل الصلوات اليهودية السابقة والمعاصرة للمسيح لا نجد صلاةً واحدةً تجعل من "يهوه" الآب. حتى الصلاة المشهورة Abinu, Malkeinu أبانا ملكنا □□□□□ □□□ נה تمضي لتقول: أبانا ملكنا، لقد أخطأنا قدامك .. أبانا ملكنا ليس لنا ملكٌ آخر سواك[١].

تاريخياً، أبطل اليهود استعمال اسم "يهوه" حتى عند قراءة الأسفار، واستبدلوا اسم "أدوناي" به، باعتبار أن اسم "يهوه" مقدس لا يجوز استخدامه. وحتى في الوقت الحاضر، يكتفي اليهود المحافظون باستخدام كلمة "الاسم" فقط لكي يفهم مَن يسمع، أن كلمة "اسم" تعني "يهوه". وعند التحية يقولون: "بارك الاسم". هكذا إذن، تم حذف الحضور الإلهي من وسط الجماعة وفي حياة الأفراد، وصار التعليم النبوي القديم شبه مهجور، لكن جاء يسوع لكي يؤكِّد أولاً أنه هو الحضور الإلهي للآب. ومَن يفهم الخلفية التاريخية يعرف أن كلمات الرب في انجيل متى: "لأنه حيثما اجتمع اثنين أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم"، تعني حضوره الإلهي، فقد كانت الفكرة السائدة عند اليهود الأتقياء أنه إذا اجتمع اثنين أو ثلاثة لدراسة التوراة، تحل الشاكيناه. وقد كان الأنبياء يتنبأون على صوت الموسيقى، حيث يسير أمامهم من يعزف على الرباب والدف والناي والعود وهم يتنبأون (١ صمو ١٠: ٥-٦) وكانت الشاكيناه تجيء بقوة، فهي سحابة المجد الإلهي التي ظهرت في تجلي الرب وهي مجد وكرسي الله (ارميا ١٧: ١٢). وكل مَن درس المشناه أو كتابات علماء اليهود، يعرف أن كلمة "مجد" هي "الحضور الإلهي نفسه" (راجع حدث التجلي عند لوقا ٩: ٣-٦، أعمال ٢: ٩ – ٢، بطرس ١: ١٦-١٨). وعندما يقول الرب إن اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه، فهو يعني الحضور الإلهي، وتعبير "أنا أكون في وسطهم" هو أقوى تعبير عبراني

---

(١) راجع آخر دراسة تاريخية

Rabbi Lawrence A. Hottman, Naming God, 2015 Jewish Lights, USA.

عن أُلوهية يسوع المسيح.

– وقد أظهر يسوع مجد الألوهة (يوحنا ٢: ١١) عندما حوَّل الماء إلى خمر.

– وقد اعتبر يسوع أن الهيكل هو بيت أبيه. وفي إشارة إلى موته وقيامته، قال لمن سمعه من اليهود إنهم عندما سوف يهدمون الهيكل، أي جسده، فسوف يعرفون قيامته؛ لأنه سوف يقوم من الأموات (يو ٢: ٢٢).

– وقد جاء يسوع برسالة الحياة الأبدية مؤكِّداً أنه هو الذي يعطي هذه الحياة، وهي عطية الروح القدس (يوحنا ٤: ١٤).

– وصراحةً قال إن الايمان ليس إيماناً بالتعليم وحده، بل به هو شخصياً، ولذلك يقول إن الآب أرسله، وإن من يؤمن بأبوة الآب فله حياة أبدية، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة (يوحنا ٥: ٢٤-٢٦).

– وجاء التعليم صارخاً: ليس أحد رأى الآب إلاَّ الذي مِن الله، هذا قد رأى الآب" (يوحنا ٦: ٤٦).

– وجاء الإيمان بأن المسيح هو خبز الحياة الذي حلَّ محل المن والسلوى، وأنه هو خبز الله النازل من عند الآب، وأن مَن يأكل مِن هذا الخبز ينال حياة أبدية. ثم صدم اليهود عندما قال: "الخبز الذي أعطي (أعطي أنا) هو جسدي" (راجع يوحنا ٣٢-٥٨)، حيث يعطي جسده ودمه لحياةٍ أبدية[١].

---

(١) عندما سلَّط النقاد سيف النقد على إنجيل يوحنا، كتب الاسقف الانجليزي John T. Rodinson, The Priority of John, 2011 وأعاد تاريخ كتابة الإنجيل إلى عام ٤٠-٤٥ وسبق هذا البحث، بحث آخر بعنوان Redating the New Testament, 2000 أعاد فيه تاريخ كل أسفار العهد الجديد، وبالتالي لا صحة بالمرة للإدعاء بأن إنجيل يوحنا كُتِبَ في القرن الرابع؛ لأن أقدم برديات العهد الجديد هي بردية رقم P52 وهي جزء من إنجيل يوحنا ١٨: ٣١-٣٣ ونُشِرَت عدة مرات، وهي محفوظة في مكتبة John Rylands في مانشستر في بريطانيا وتعود إلى ٩٠-٩٥ ميلادية وعُثر عليها في مصر.

- كان يسوع يقول عن نفسه إنه ابن الآب أو ابن الله؛ لأن الله كما هو واضح من كل العهد الجديد هو الآب، وحتى في إحلال خبز يسوع محل المن يقول يسوع: "ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي (ليس يهوه، بل الآب، رداً على شهود يهوه) يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء؛ لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياةً للعالم (أي يسوع نفسه). ثم قال مباشرةً بعد ذلك: "أنا هو خبز الحياة ... كل ما يعطيني الآب فإليَّ يُقبِل ومن يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً". ولكي نتأكد أكثر من أن الرب يتحدث عن الآب في نفس الفقرة، يقول: "لأني نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني. وهذه هي مشيئة الآب (ليس يهوه) الذي أرسلني .. إن كل مَن يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنا ٦: ٣٢-٤٠).

إستعلان المساواة في وحدانية الحياة ووحدانية الإرادة:

- يقول يسوع "أنا حيٌّ بالآب" (يوحنا ٦: ٥٧).

- "أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني" (يوحنا ٨: ١٨).

- "أتكلم كما علمني أبي. الذي أرسلني هو معي و لم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه" (يوحنا ٨: ٢٨).

- "أبي الذي يمجدني هو الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه وأما أنا فأعرفه" (يوحنا ٨: ٥٤ - ٥٥).

- "وأنت يا يسوع إنسان تجعل نفسك إلهاً. فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدِّف لأني قلت إني ابن الله .. إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا في الآب" (يوحنا ١٠: ٣٧-٣٨). وقبل ذلك يقول يسوع إنه هو الراعي الصالح وإن الآب أعطاه هذه الخراف، ثم

"وأنا أُعطيها حياةً أبديةً ... أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل .... أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٢٥-٣٠).

هذه الوحدانية هي وحدانية العمل والإرادة، ثم المحبة. وهي ما أكَّده يسوع نفسه في أطول صلاة في يوحنا اصحاح ١٧ ونقل إلينا محبة الآب: "ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به"، وأضاف: "وأكون أنا فيهم" (يوحنا ١٧: ٢٦).

هكذا يجيء استعلان بنوة الابن لنا باستعلان المحبة الواحدة التي لا تنقسم، والتي تجعل كل مَن يؤمن بالابن، يؤمن بالآب، وكل مَن يقبل الابن يقبل الآب إلى درجة أن الآب والابن معاً يصنعون في المسيحي "مسكناً"، أو "بيتاً" (يوحنا ١٤: ٢٣).

- "أنا في الآب" حياة واحدة، تجعل هذه الحياة الواحدة تَهَب لنا الحياة الأبدية التي هي عند الآب (١ يو ١: ١)، فهي حياة واحدة تُعطى من الآب بالابن.

- "وأنتم فيَّ وأنا فيكم" (يوحنا ١٤: ٢١)، هو استعلان المحبة الإلهية "الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي" (يوحنا ١٤: ٢١).

وبسبب هذه الوحدانية، أرسل لنا الابن الروحَ المعزِّي من عند الآب (يوحنا ١٥: ٢٦)، الروح الذي من الآب ينبثق لكي يسكن فينا.

القول الأخير:

القول بأن "الله بلا أبوة"، يجعل "اللهَ" فكرةً غامضةً عن خالق قدير قوي .... الخ له صفاتٌ كثيرة. ولكن، عندما تغيب المحبة، تغيب الأبوة، وعندما تصبح الأبوةُ لقباً بلا بنوة في الآب، فلا يكون الله آباً بل خالقاً فقط. الأبوةُ عندما تكون اسماً فقط، عندئذٍ نكون قد عدنا إلى الإشكالية الكبرى، وهي إشكالية الألفاظ والأسماء التي ليس لها ما يقابلها في الواقع. لكن الاستعلان الحقيقي لأبوة الآب، هو أبوة الآب لابن

حقيقي، جاء لكي يشركنا في محبة وفي حياة الآب على النحو الذي ذكره رسوله في (١يوحنا ١: ٣): "أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح"، فهي شركة الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت؛ لأن هذه الحياة هي يسوع نفسه. ولأنك يا يسوع ابن الآب، هكذا أنا أيضاً بك وفيك صرتُ ابناً للآب.

الفصل الثالث

إنسانية يسوع المسيح والشِّركُ باللّه

هل يُعَدُّ الاعتراف ببنوة الابن شِركٌ بالله؟

سؤالٌ طُرِحَ، وإن كان بشكلٍ مختلف في القرن الخامس، وقد طرحه بطريرك القسطنطينية نسطور عندما فصل أُلوهية الابن عن إنسانيته، وسأل: هل تقدَّم العبادة إلى الإنسان يسوع المسيح؟ و لم يقابَل السؤالُ بالصمت، إذ دار حوارٌ أولاً بالرسائل التي بعث بها القديس كيرلس الكبير إلى نسطور شخصياً وإلى غيره من الأساقفة، ثم عُقِدَ مجمع أفسس ٤٣١. فما هي خلاصة الحوار مع نسطور، وما هي خلاصة قرار مجمع أفسس، وهو المجمع المسكوني الثالث الذي نال قبول الكنيسة الجامعة، ولذلك أُعتبر مسكونياً؟

كانت بداية تعليم نسطور هي في كتابات ديودور *Diodore* ثم تلميذه بعد ذلك ثيودور *Theodore* (392-428) وكلاهما دون أن يدري، عن جهلٍ أو عن معرفة، لم يكونا على وعي بأن التمييز بين الأُلوهة والإنسانية في المسيح، سوف يصبح أكبر هرطقة في القرن الخامس. الفكرة كما تبدو عند كلاهما هي أن ألقاب المسيح الإلهية لا يجب أن تُنسب إلى الناسوت أو طبعه الإنساني، فالناسوت لا يمكن أن يوصَف بأنه الكلمة أو الابن الوحيد، بل مضى ديودور إلى القول بأن "الكلمة ليس هو ابن داود بل هو رب ابن داود، والكلمة ليس ابن مريم"، وإن "الإنسان الذي وُلِدَ من

مريم هو ابن الله ليس بالطبيعة، بل بالنعمة، فالكلمة وحده هو الله بالطبيعة"[١]

كان لدى كلاهما تعبيران:

- رابطة συνάφεια – binding أو اتفاق أو مصاحبة.

- علاقة σχέσις – relation

وأقصى ما يمكن أن يصرِّح به هو ένοίκησις أي حلول أو سكنى، وهو حلول مسرة ورضى ευδοκία و لم تظهر كلمة **اتحاد** إلا في مرحلة متأخرة، عندما تنازل ثيودور عن آراء ديودور وأكَّد وحدة شخص وأقنوم الكلمة باتحادٍ تم في أحشاء البتول، فالمسيح يسوع شخصٌ واحد يحتوي الطبيعتين[٢]. بل يمضي ثيؤدور ليقول في مقالته عن التجسد: "من الصواب أن نعترف بابنٍ واحدٍ، رغم أن تمايز الطبيعتين يجب أن يبقى مع اتحاد الأقنوم ή τού προσώπος ένωσις"[٣]. ولكن على الرغم من ذلك، رفض أن يعترف بأن الكلمة ابن الآب، ولِدَ من العذراء مريم، وكان يجيب على هذا السؤال: "عندما نسأل هل مريم والدة الإنسان άνθρωποτόκος أم والدة الإله؟ فإننا نجيب بأنها هي الاثنين والدة الإنسان حسب ما حدث، ووالدة الإله حسب العلاقة άνφορά والدة الإنسان بالطبيعة لأن الذي ولِدَ من رحمها هو إنسانٌ، ووالدة الإله؛ لأن الله كان في الإنسان الذي ولدته، فهو الإله ليس لأن طبيعته خضعت للميلاد، وإنما بسبب أن إرادته هي التي جعلته يقبل الولادة"[٤].

---

(١) مجلد ٣٣، عمود ١٥٦٠ – وأيضاً ماريوس مركاتور Marcator مجلد ٤٨، عمود ١١٤٨.

(٢) شرح قانون الإيمان، نشر النص اليوناني H. B. Swete مع شرح ثيؤدور لرسائل القديس بولس راجع ص ٣٢٩ عمود ١٠١٧ وأيضاً مقالة ضد أبوليناريوس ٤ طبعة Swete ص ٣١٤ عمود ٩٩٤.

(٣) مقالة التجسد ٨ طبعة Swete ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٤) مقالة التجسد ١٥ ص ٣١٠ المرجع السابق.

هكذا بدا الموقف غامضاً، ولكن كان اتحاد الإرادة في رَحِم البتول هو أضعف تعبير عن حقيقة اتحاد الطبيعتين.

وعندما وصل القس انسطاسيوس *Anastasius* إلى القسطنطينية مع نسطور في سنة ٤٢٨ فقد هاجم بسخرية لقب والدة الإله، وكان معروفاً في كل مكان حسب شهادة المؤرخ الكنسي سقراط (تاريخ الكنيسة ٧: ٣٢) واعتبر أن اللقب هو حماقة، وأن اللقب المعقول هو والدة الإنسان (راجع Mansi, 4 577ff).

عندما جمع المؤرخ الألماني *F. Loofs* كل ما عُرِفَ من كتابات نسطور ونشر الكتاب في عام ١٩٠٥، ثم نشر دفاع نسطور عن نفسه، وهو مدون بالسريانية بعنوان غريب "كتاب هيراقليدس الدمشقي" نشره الأب P. Bebian في ١٩١٠ وجاء نشر الوثائق بدراسة المؤرخ الانجليزي الاستاذ السابق بجامعة كامبريدج J. F. Bethune Baker بعنوان نسطور وتعليمه ١٩٠٨، صارت صورة نسطور وتعليمه أوضح بكثير:

*** ما أكَّده نسطور:**

١- الايمان بالطبيعتين.

٢- حقيقة ميلاد وتجسد الرب كإنسان وأُلوهية الابن.

*** ما فشل فيه نسطور:**

١- تأكيد اتحاد الطبيعتين.

٢- تأكيد اتحاد أقنومي، وليس اتحاد إرادتين ومسرة واتفاق.

*** ما عَثَرَ فيه نسطور:**

عدم قدرته على استيعاب المحبة الإلهية التي رضيت بالإنسانية في اتحاد سري

فائق جعل اللاهوت والناسوت في اتحاد حقيقي يتم فيه دائماً **تبادل الصفات حسب التدبير** أو حسبما هو سائد Communicatio idiomatum وتظل كل عبارات نسطور التي نشرها Loofs على صفحات ١٩٦-٢٢٤ تؤكد عدم إدراكه لاتحاد الطبيعتين، فهو اتحاد إرادة ومسرة واتفاق، ولا يوجد اتحاد حسب جوهر اللاهوت بجوهر الناسوت καί οὐσιαν بل إنه اتحاد عددي numerical "يجب أن نميز بين الكلمة والإنسان الذي حل فيه حلولاً عددياً Numerically لأن كلاهما كائنان متميزان" (ص ٢٢٤ Loofs). وهكذا يقول أيضاً: "حسب الطبيعتين، ففي الأقنوم *Prospon* حدث اتحادٌ؛ لأن الواحد، أي الكلمة هو آخر، أي الإنسان. الثاني هو الإنسان، والأول هو الكلمة" (هيراقليدس ص ٢١١).

وقد جاء الاعتراض العقلي على تعبير "والدة الإله" بقوله: "إن الأم والولد أو الابن يجب أن يكونا معاً من نفس الطبيعة الإنسانية المخلوقة، ولأن مريم إنسانٌ مخلوق، هكذا يجب أن يكون المسيح. المشكلة أن هذا هو نصف الحقيقة، وحتى حلول الروح القدس على العذراء لا يجعل العذراء والدة الروح القدس πνευματοκος (ص ٣٥٢ Loofs)، بل حتى عن الولادة، فقد عَبَرَ أو مَرَّ الله من العذراء أو خرج منها προελθείν ولكنه لم يولد منها" (Loofs, p277-8).

وهنا يكون إنكار التجسد بات واضحاً باستخدام أزلية الابن الكلمة المولود من الآب فقط، وإنكار ولادته بالجسد من القديسة مريم "الكلمة المولود منذ الأزل لا يوجد ميلاد آخر له" (المرجع السابق صفحات تكرر فيها هذا القول ١٧٦، ١٧٧، ٢٥٢، ٢٨٥).

بل، وحتى لقب "ابن الله" لا يخص الإنسان يسوع المسيح، فهو ابن الله حسب الطبيعة الإلهية، وأما الإنسان يسوع المسيح، فهو من أجل كرامة العلاقة بالكلمة، وهذا هو أغرب تعبير عند نسطور "هو ابن الله لمجرد أنه يحمل ذات الاسم فقط" (المرجع السابق ٢١٧). وبسبب هذا بالذات، كتب القديس كيرلس الفصول الاثنى عشر التي

تُعرف في الغرب باسم الحرومات الاثنى عشر. وفي الفصل الأول يفنِّد مدافعاً عن تجسد ابن الله:

"كل مَن لا يعترف بأن عمانوئيل هو الله بالحقيقة، وبسبب هذا فالعذراء هي والدة الإله لأنها ولدت جسدياً الكلمة الذي من الله، الذي تجسد، فليكن محروماً".

وفي الفصل الخامس بالذات، قال:

"مَن يتجاسر ويقول إن المسيح هو إنسانٌ حاملٌ لله، وليس بالحري هو الله بالحق، والابن الواحد بالطبيعة، إذ أن الكلمة صار جسداً واشترك مثلنا في اللحم والدم، فليكن محروماً"[١].

مما سبق يظهر لنا أن الإيمان بأُلوهية الابن جعل نسطور ينكر ميلاده بالجسد ويكتفي بالميلاد الأزلي.

هذا هو منهج الهراطقة جميعاً دون استثناء، ويتلخص هذا المنهج في أنه: **يقول حقيقةً واحدة من مجموعة الحقائق لكي تصبح هذه الحقيقة أداةَ انكار حقيقة أخرى.**

ماذا خلَّفت النسطورية ورائها من آثار:

لعل أول ما يجب أن ننتبه له هو الفصل الثامن أو الحرم الثامن من الفصول الاثنى عشر للقديس كيرلس:

"كل مَن يتجاسر ويقول إن الإنسان الذي اتخذه الكلمة ينبغي أن يُسجَد له

---

(١) راجع سلسلة نصوص الآباء، ٢١، رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الانطاكي – يوليو ١٩٨٨ – مركز دراسات الآباء، القاهرة، ص ٣٥-٣٦.

مع الله الكلمة، ويُمجَّد معه، ويسمى معه الله؛ كما لو كان (اللاهوت) في (الناسوت)، (أو "مع" الناسوت التي تضاف دائماً لكي تفرض أن لفظ "مع" هو نوعٌ من الحلول أو المصاحبة)، ولا يسجد لعمانوئيل بسجدة واحدة لعبادته، ولا يُرسل له تسبيحاً وتمجيداً واحداً (لأنه لا يمكن فصل اللاهوت عن الناسوت)، فليكن محروماً.

ذلك أن نسطور كان يستخدم لفظ "مع" لتأكيد نوع من "المعية"، ورفضاً للحقيقة الواحدة غير القابلة للانقسام؛ لذا فقد أصبح كل مَن يقول في النسطورية إن المسيح هو الله، محروماً. وقد رد نسطور بـ ١٢ فصلاً رداً على الـ ١٢ حرم أو فصل للقديس كيرلس، وصلنا النص اللاتيني لها، ترجمة ماريوس مركاتور (الآباء اللاتين مجلد ٧٦ عامود ٣٩١).

يقول نسطور في **الفصل الأول**: "ونحن جميعاً نتبع كلمات الإنجيليين التي تؤكد أن "الله الكلمة" لم يصبح جسداً وتغيَّرت طبيعته إلى جسد؛ لأن الألوهة غير متغيرة، ولا هي متحولة، ولذلك يقول النبي داود: "أنت هو وسنوك لن تفنى"، وهو نفس ما يؤكده بولس العظيم المبشِّر بالحق في رسالته إلى العبرانيين مؤكِّداً أن هذا قيل عن الابن. وفي موضع آخر يقول الله بواسطة النبي: "أنا الرب لا أتغيَّر". وبعد ذلك يسأل نسطور مبرراً ما ذكره، إذ يقول: "إذا كان غير المتغيِّر لا يمكن أن يتغير، إذن الله الكلمة لم يصبح جسداً قابلاً للتغيير، بل أخذ جسداً، وسكن فيه معنا حسب كلمات الإنجيلي".

ثم: "الله الكلمة لم يصبح جسداً، بل اتخذ جسداً عاقلاً حياً، وهو نفسه لم تحبل العذراء بطبيعته؛ لأنه لم يتكون ولم يأخذ وجوده منها؛ لأنه قبل كل الدهور، إلهٌ مع إلهٍ ... لأن الله لم يتغير إلى صورة العبد، بل هو الإله الذي يُعبد مع الآب، وهو الذي كوَّن لنفسه فيها ذلك الهيكل في رحم البتول، والهيكل هو الذي تكوَّن ووُلِد".

وبعد ذلك، وهو ينكر الاتحاد، بل ينكر حقيقة التجسد، يكتب عن والدة الإله: "وبسبب ما ذكرناه سابقاً، فإنه من الشائع ان العذراء هي والدة الإله

θεοτόκος ليس لأنها ولدت طبيعياً الله، بل ولدت الإنسان المتَّحد بالله الذي خلقه".

ويصل الغباء النسطوري إلى هذه العبارات التي تلي الفقرة السابقة: "إذا كان الذي كُوِّن في رحم العذراء ليس الإنسان، بل الله الكلمة الكائن قبل كل الدهور، فهذا يعني أن الله الكلمة هو مخلوق، خلقه الروح القدس لأن الذي حُبِلَ به فيها (العذراء) كما يقول جبرائيل هو من الروح القدس".

والغباء هنا مصدره عدم تصوُّر الاتحاد تصوُّراً أرثوذكسياً، أي أن اتحاد اللاهوت بالناسوت جعل الرب الإله يختبر ما هو إنساني بالاتحاد به، فهذا هو حقيقة التجسد.

ويمضي نسطور فيما تصور أنه الإيمان المسيحي قائلاً: "ولكن إذا كان الابن الوحيد الكلمة من الله غير مخلوق ومن جوهر واحد أبدي مع الآب، فهو لم يتكون بالروح القدس، و لم يُخلَق بالروح القدس. فإذا لم يُكوَّن الله في رحم العذراء، فإننا نفهم أن صورة العبد هي التي كُوِّنَت وحُبِلَ بها ووُلِدَت. وحيث أن صورة العبد لم تكن بدون صورة الله، بل صارت الهيكل الذي يحتوي على الله الكلمة الساكن في الهيكل حسب كلمات بولس: "مسرة الآب أن يحل فيه ملء اللاهوت جسدياً"، فإننا ندعو العذراء ليس والدة الإنسان، بل والدة الإله مؤكِّدين أن لقب والدة الإنسان هو خاص بتكوين والحبل بالإنسان، وأمَّا لقب والدة الإله، فهو خاصٌ بالاتحاد؛ لأن الطفل الذي وُلِدَ يسمى عمانوئيل، وهو لا يعني انفصال الله عن الإنسانية، أو الإنسان من جوهر اللاهوت".

وهذه الفقرة الأخيرة تُظهر مقدار تخبط نسطور، فهو يريد الاعتراف بأن العذراء والدة الإله، ولكن في نفس الوقت لا يريد الاعتراف، ولذلك يحتفظ لنفسه بخط الرجعة؛ لأن الفكرة المؤكَّدة المسيطرة على وعيه، هي عدم ولادة الله الكلمة من العذراء؛ لأن الولادة -كما رأينا- تعني -حسب نسطور- بداية تكوُّن وبداية وجود، وهو ما يتعارض مع أزلية الله الكلمة.

أمَّا كيف يشرح اسم "عمانوئيل"، فهو ما سيُظهر فشل النسطورية التام وغباوة نسطور: "معنى عمانوئيل" الله معنا حسب كلمات الأناجيل، وتعبير "الله معنا" يعلنه ذاك الذي لأجلنا قد اتُّخِذَ منا، ويبشر بأن الله الكلمة قد أخذ (جسداً)، ولذلك، الطفل يُدعى عمانوئيل بسبب ما اتخذه الله. وأيضاً "العذراء والدة الإله" بسبب اتحاد صورة الله بذاك الذي حبلت به، أي صورة العبد. ولكن الله الكلمة لم يتغيَّر إلى جسد، ولكن صورة الله أخذت صورة العبد".

وقد خصص نسطور **الفصل الثاني** للهجوم على تعبير "الاتحاد الأقنومي"، وهو زئبقي اللفظ والمضمون أيضاً. والقارئ الفطن يرى بنفسه –من كلمات نسطور– أنه لا يريد الإيمان باتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص الرب الواحد، فيقول:

"نحن بطاعة التعليم الإلهي للرسل، نعترف بالمسيح الواحد، بسبب الاتحاد، ونسمي الاثنين: الله والإنسان. ولكننا نجهل تماماً ذلك "الاتحاد الأقنومي" كتعبير غريب وشاذ لا وجود له في الأسفار الإلهية والآباء الذين شرحوا الأسفار.

وإذا كان مؤلف هذا التعبير، وما يصاحبه من عبارات، يعني بالاتحاد الأقنومي اختلاط الجسد باللاهوت، فإننا سوف نقاوم هذا التعليم بكل ما لدينا من قوة، بل سوف نفنِّد هذا التجديف؛ لأن الاختلاط بالضرورة يعني الامتزاج، والامتزاج يبيد خصائص كل طبيعة على حدة. فالأشياء التي تختلط لا تبقى كما هي، وأن ننسب هذا إلى الله الكلمة، وفي مَن هو مِن نسل داود، يصبح جنوناً.

نحن نطيع الرب الذي يعلن الطبيعتين بقوله لليهود: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أنا أقيمه"، فإذا كان اختلاطٌ، فإن الله لا يكون الله، ولا الهيكل يمكن الاعتراف به كهيكل، ويبقى أن الله هو الهيكل، والهيكل هو الله. هذا طبعاً يخص فكرة الاختلاط. ومن نافلة القول، لو كان الاتحاد الأقنومي يعني الاختلاط؛ فإن الرب كان سيكتفي بأن يقول لليهود ليس انقضوا هذا الهيكل وأنا في ثلاثة أيام أقيمه، بل كان يجب عليه أن يقول "انقضوني أنا وفي ثلاثة أيام سوف أقوم" أهـ.

قطعاً لا توجد سخافة تفوق هذه السخافة النسطورية. والمشكلة هي كما ذكرنا من قبل، استخدام حقيقة لضرب حقائق أخرى. وهو ذات الأسلوب الذي رأيناه في كتابات الأنبا شنودة، وتحديداً استخدام "الشركة في الطبيعة الإلهية" لضرب حقائق أخرى: البنوة – ميراث الملكوت – القيامة المجيدة.

وتبدى ذلك أيضاً في استخدام "مواهب الروح القدس" لضرب سكنى الروح القدس. ذات العقل الذي قال في القرن الخامس: "لم يقل الرب خذوا كلوا هذا هو لاهوتي" بل قال "خذوا كلوا هذا هو جسدي". فاللاهوت لا يؤكل، وإنما الذي يؤكل هو الناسوت.

هنا نرى كيف يضرب نسطور عدة حقائق بحقيقة واحدة، ثم يراوغ. الرب قال انقضوا هذا الهيكل، وكان يقصد جسده، فاللاهوت لا يمكن أن يعاني ذلك. ولكن أليس الذي ذاق الموت بالجسد هو الكلمة ابن الله، والتعبير موجود في العبرانيين "لكي يذوق بنعمة الله (لا بغضب الآب حسب ادعاء المطران) الموت لأجل كل واحد" (عب ٢: ٩)؟

وحتماً، الاتحاد الأقنومي لا يعني الاختلاط بالمرة، ولا حتى الامتزاج الذي يتخيله نسطور. هو يحارب فكرة في عقله هو وحده. وقد فعل مثله تماماً الأنبا شنودة، إذا أخذ يكتب ويعظ بأن "تأله الإنسان" يجعل الإنسان مثل الله، موجوداً في كل مكان، وقادراً على كل شيء ... إلى آخر كل ذلك من تصورات لم تخطر على بال الذين كتبوا عن شركة الطبيعة الالهية أو تأله الإنسان، بل بالعكس، أكَّد الكل بقاء الإنسان إنساناً.

العقل النسطوري:

لماذا الانفصال عن الآب؟ ولماذا تحكم دونية الإنسان علاقة الإنسان بالله؟ ولماذا تُسقط دونية الإنسان كل خيالاتها على الله نفسه؟ هذه الأسئلة وغيرها ستظل

هي محور الصراعات الفكرية التي تمخَّض بها تاريخ الكنيسة. ولذلك لم يكن غريباً أن يأتي "أوطاخي"، وهو رئيس دير بذات المنطق، أي بمنطق دونية الإنسان، لكي يلغي التجسد تماماً بذوبان الناسوت في اللاهوت. لم يكن العقل النسطوري أو الأوطاخي فريداً، فهو وليد الثقافة اليونانية الكلاسيكية التي أفرزت الغنوصية، أي احتقار كل ما هو مادي ومنظور؛ لأنه شرير. ومن ثمَّ تولد فكرة أخرى، هي الأريوسية، وهي مع دونية الجسد الإنساني الذي حاربته المانوية أيضاً، تنال من أُلوهية المخلص. فالله لا يمكن أن يتحد أو يحيا في جسد إنساني؛ لأن العالم المادي حقير.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تنمو دونية الجسد والإنسان في تعليم أبوليناريوس؛ لأنه رغم أنه لم يُعلِّم باختفاء وذوبان الناسوت، إلاَّ أنه مثل غيره من السابقين، حَصَرَ الشرَّ كمشكلة لا يمكن لله الخالق أن يتصدى لها، فهو بعيدٌ وغريب، ويكره الشر، ولا يقبل على نفسه أن يحاول إصلاح الشر أو حتى تغيير مساره، فأنكر أبوليناريوس، وكان بدوره ضليعاً في الآداب اليونانية الكلاسيكية، وجود النفس الإنسانية في المسيح يسوع.

إذن، ما هو قلب المشكلة عند أبوليناريوس؟ الابن الكلمة لم يتحد بعقل ونفس إنسانية، بل أخذ جسداً بلا نفس وبلا عقل إنساني.

هذا جهلٌ لمحبة الخالق وإسقاطٌ لمحبة الابن للإنسان. فالاتحاد الكامل هو الحل الكامل لمشكلة الشر، وليس الهرب إلى أحكام الشريعة. ومن يظن أن هذا التفكير غريب علينا، فهو لم يتمعن فيما ينكره أبوليناريوس، ذلك لأن:

١- إنكار اتحاد الرب بالإنسان كله، الجسد والنفس والإرادة والعقل، يعني إنكار أنه جاء لكي يخلِّص الإنسان كله لا جزءاً من الإنسان.

٢- التربية التي تعتمد على الشريعة، لا تعرف المحبة، ولا تقوِّي حرية الاختيار عند الإنسان، أي اختيار المحبة.

يضاف إلى أبوليناريوس، العقل النسطوري. فالعقل النسطوري **ليس مجرد عقل رافض، بل هو أيضاً عقلٌ خائفٌ**، يسعى لأن يحفظ ويحمي ما يراه مصدر الأمان، والحصن الذي يجب أن يدافع عنه. وهو ما ظهر فيما بعد في روحانية النهضة الإنجيلية، فقد انعكس العقل النسطوري، عقل الانفصال والخوف، في أدبيات هذه النهضة، فيما نادت به من غضب الآب الشديد الذي يؤدي إلى معاقبة الابن وإلى اعتبار الخطية انفصال عن الله لا مجرد اغتراب الانسان عن خالقه؛ لأن الانفصال هو القطيعة، وهي تلك الحالة التي وصف بها رسول المسيح حالة الأمم بأنهم "مظلمو الفكر ومتجنبون عن حياة الله لسبب الجهل الذي فيهم بسبب غلاظة (الإدراك) قلوبهم" (أفسس ٤: ١٨). أما الاغتراب، فهو حالة العداوة الفكرية، وهي "أعداء في الفكر في الأعمال الشريرة" (كولوسي ١: ٢١)، ولكن الله "قد صالحكم الآن" (في المسيح)، ولاحظ دقة تعبير الرسول: "في جسم بشريته بالموت (بموت يسوع) ليحضركم قديسين وبلا لوم وبلا شكوى أمامه"[١] (كو ١: ٢١). ولكن كل هذا يسقط أمام إغراء شديد نابع من خوف الإنسان على الله، وهو ما يعيد الإنسان إلى حصن الشريعة حيث تعالج الشريعة -بشكلٍ مؤقت، غير أبدي- طهارة الإنسان، وتحصر هذه الطهارة في طقوس جسدانية أهمها الاغتسال والاعتزال فترة من الزمان لعل بمضي الزمان تمضي النجاسة نفسها.

عودٌ على بدء: هل المسيح ابن الله، أم الله؟

هل كان فتح التاريخ القديم مضيعةً للوقت؟

بكل تأكيد، لا؛ لأن التاريخ الكنسي هو أحد عناصر الأرثوذكسية. تأمل كيف سلَّط نسطور النظر على إنسانية يسوع، ولأن يسوع هو محور العبادة

---

(١) "بلا لوم"، تكررت في أفسس ١: ٤، ولا زال "لوم" الشريعة القديمة يلاحق النساء بمنعهم من التناول؛ لأن عقل نسطور أعاد إلينا شريعة العهد القديم باعتبار أن الإنسان نجسٌ مهما كان.

والصلوات في القداسات، لدينا مشكلة تاريخية عن الإشارة إلى جسد ودم المسيح في الصلوات النسطورية. كان سؤال نسطور: كيف نسجد لإنسان متَّحد بالله؟ وهو عكس التسليم الكنسي؛ لأننا لا نسجد لإنسان متَّحد بالله، بل نسجد لله الكلمة المتجسد الذي يشاركنا نفس الإنسانية.

في العصر الحديث، ذات ما أنتجه العقل النسطوري من قبل، نجده وقد عاد في الأربعين سنةً الأخيرة، فقد عاد العقل النسطوري يسأل ذات السؤال، ولكن بكلمات مختلفة: إذا كانت الكنيسة جسد المسيح، فهل تأكل الكنيسة نفسها في الإفخارستيا؟ وهل تسجد لنفسها في القداسات؟ وللأسف فقد لزم أساقفتنا الصمت، وكأن الأمر لا يخصهم، ولا يدخل في صميم العلاقة مع الله.

هنا يجب أن ننتبه إلى أن سجود العبد ليس هو ذاته سجود الابن؛ لأن الذي يسجد للكلمة المتجسد، يسجد لمن يشاركه ذات الإنسانية، وهنا بالذات، فإن إعادة طرح ذات السؤال النسطوري، يعني أن العصر الحديث يفتقد إلى ثلاثة أمور أساسية، تقدمها وتحتفل بها الخدمة المسيحية:

الأولى: إن سجودنا لمن شاركنا إنسانيتنا، يرفع من شأن الجسد الإنساني، ويقودنا إلى احترام الجسد. كان بعض شيوخ الكنيسة في الجيل السابق علينا يقولون مع اختلاف الألفاظ: أنت تسجد للرب الذي يشاركك ذات الإنسانية، ولذلك فالسجود هو اعترافٌ بالتجسد، وتوقير واحترام للجسد الإنساني في حياتك على الأرض.

الثانية: إننا نسجد لمن أحبنا، وليس لمن جاء لكي يستعبدنا، حتى بمحبته. وبالتالي، عندما تسجد لمن تحب، فأنت تسجد لمن قدَّم ذاته حباً وذبيحةً عنكَ، وهو ذات ما يطلبه، أي أن تقدم ذاتك قرباناً وذبيحة محبةٍ بالسجود الذي ينزع عنك الملكية المطلقة لجسدك (راجع رو ١٢: ٢١).

الثالثة: عندما نسجد، فإننا -حسب التسليم الكنسي- نقول: "نسجد لك أيها المسيح إلهنا مع أبيك الصالح والروح القدس؛ لأنك أتيت إلينا وخلصتنا". هو إذن سجودٌ وقيام لدخولٍ في القيامة، في الخضوع والتسليم والقيامة؛ لأننا "قياميون".

ولكن؛ لأن العقل النسطوري ينطلق من قاعدة أو أساس لا علاقة له بالتسليم الكنسي، لذلك يتساءل مستنكراً: كيف نسجد للمسيح؟ وهل المسيح هو الله؟

نحن نسجد للمسيح؛ لأنه ابن الله الذي جاء بالتجسد، ولكن يجب أن ننتبه إلى أن الاكتفاء باسم "المسيح" وحده، وعدم استعمال اسم "يسوع"، يجعل اسم الوظيفة "المسيح" يحل محل الاسم الشخصي "يسوع"، أي المخلِّص، وبالتالي يغيب عن الوعي استعلان الخلاص وبشارة تبني الإنسان. وعندما نقصر القول على أن "المسيح هو الله"، فيجب أن ننتبه إلى أن هذه العبارة تنطوي على:

١- حذف التجسد؛ لأن المسيح ليس اسماً ليسوع، بل هو اسمٌ لوظيفة، أي الممسوح. وكأن مسحة يسوع في الأردن التي جعلته "المسيح"، قد جعلته إلهاً، وبالتالي فَقَدَ الوظيفة، وفَقَدَ أيضاً الإنسانية.

٢- وعندما نقصر القول على أن: "المسيح هو الله"، أو "الله هو المسيح"، فنحن ننسى **أبوة الله لنا**؛ لأن الكلام عن الله **عارياً من الأبوة** هو كلامٌ يحذف كل بشارة الإنجيل: الثالوث – التجسد – أُلوهية الرب – أُلوهية الروح القدس – التبني، ويحول الكلام عن الله إلى اعترافٍ مظهري شكلي بلا مضمون وبلا استعلان وبلا شركة.

فلنكن إذن على حذر.

هل المسيح هو الله؟

نعم، لمن يضيف: هو ابن الآب، وهو ما يعني أننا لسنا أمام الله، بل أمام الله

الآب أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح.

الفصل الرابع

المسيحُ ابنُ اللّه،

واهبُ البنوةِ من عند الآب

مع أن اللغة العربية تعرف كلمة "خدمة"، إلا أن الترجمة العربية للكتاب المقدس هي التي أدخلت لدينا كلمة "عبادة"، وأصبحت هذه الكلمة هي الكلمة المتداولة –عن غير وعي– للدلالة على شركتنا في الليتورجية. في حين أن كلمة "خدمة" هي الكلمة المستخدمة في الصلوات الليتورجية في دلالة على خدمة الله لنا، لا على عبادةٍ نؤديها نحن. فخدمة الله لنا لا تتفق مع الاعتقاد بدونية الإنسان التي تعبر عنها كلمة "عبادة". وخدمة الله لنا، وإن كانت غير معروفة في الثقافة المصرية السائدة، ولكنها أساسية في التعليم المسيحي الرسولي، فالله هو الذي يخدمنا، وخدمة الثالوث لنا لها ثلاثة أسباب:

أولاً: الثالوث القدوس هو الذي فَتَحَ حياته الإلهية للإنسانية. صحيح أن هذه الحياة لم تكن مغلقةً، ولكن كانت هناك علاقة خارجية تحت قيادة الأنبياء. أمَّا بعد أن تجسد الابن له المجد، جاء الابن بالحياة، وهذه الحياة ليست رسالةً لفظيةً، بل رسالةُ عطاءٍ شخصي من الابن؛ لنكون أحراراً، ولكي نحيا مثله.

ثانياً: في التجسد حدث تبادُلٌ شخصي، حيث أخذ الابنُ الإنسانيةَ وأعاد خلقها من جديد بالاتحاد بها، فأعطى لها الخلود بعد أن رفع الموت وداس عليه وأزال

الدينونة وجعل من كل هذا، خدمته لنا؛ لأننا لا نستطيع أن نحصل على هذا التغـــيير الشخصي إلاَّ من الشخص، أي من يسوع نفسه، فهذه هي خدمته لنا، وهو ما تعبِّـــر عنه التقوى الأرثوذكسية: "أنت الذي خدمت لي الخلاص". فيسوع هو الذي يعطـــي حياته لنا في الإفخارستيا، وهذه هي خدمته الباذلة الواهبة، ومن هنـــا صـــار حـــتى السجود، هو سجودٌ لمن وهب الحياة، سجودٌ لمن نشترك في كيانه لقبول عطية الحياة، وعلى ذلك فهو ليس مثل سجود العبيد، بل سجودُ وقارٍ وهيبة واعتراف ومحبة.

ثالثاً: خدمة الثالوث لنا هي خدمة العطاء، ولأن العطاء هو عطـــاءُ حيـــاة، فالحياة الجديدة ليست هي البقاء في إطار الحياة القديمة، أي الحياة البيولوجية لكي تبقى إلى الأبد، بل وهب لنا شركة في قيامته، وهو يخدمنا بعطاء الحياة. والقيامة هي الـــتي جعلت هذه الخدمة هي خدمة الراعي الصالح، وخدمة مَن يعطي حياته لنا، ليس لكي يسود ويقهر، بل لكي يرفع الإنسان من الحياة البيولوجية إلى حياة إنسانية / سمائية.

عطية البنوة هي الاعتراف الحقيقي بأبوة الله الآب وأُلوهية الرب يسوع:

والبنوة ذاتية. هي الصفة الأقنومية للابن. ولذلك، من الابن ننال البنوة كعطية لكي نشترك فيه وبه في العلاقة الذاتية الشخصية أو الأقنومية التي له مع الآب "ولأنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤-٦).

وهنا نلفت النظر إلى أنه قد أُريقَ كثيرٌ من المداد على الورق حول بنوتنـــا لله، فمِن قائلٍ بأنها علاقة شرفية فقط، وبالتالي يكون قد زيَّف هذه العطية تزييفاً رخيصاً، إلى مَن ادَّعى ادعاءً كاذباً بأننا نصبح مثل الابن، وكأن الواهب، أي الابن، فَقَدَ حريته وتم السيطرة عليه وانتزعَ الإنسانُ ما لم يُعطاه، وكأن بنوة الابن الأزلية للآب باتـــت مهدَّدةً بالعطية نفسها!! هذا التصور الجنوني ليس إلا جنوحٌ نحو وثنيةٍ تحاول النيلَ من الإنجيل. **وهنا يجب أن نتوقف أمام التعليم الحقيقي عن الثـــالوث** الـــذي لا يمكـــن

إخضاعه لتصورات العقل وجموح الفكر، الذي يعبَّر عن عقلية لا تعرف إلا الاستيلاء والإخضاع، بل والاغتصاب:

أولاً: إن وحدة حياة الثالوث، التي نعبِّر عنها باسم "الجوهر" هي وحدة حياة خاصة بالله، هي وحدانية لا مثيل لها، ولا يمكن أن تُقَلَّد، ولا يمكن أن تقع تحت سيطرة البشر. وعندما يهب اللهُ نعمةً، فهو يعطي بحرية، مصدرها الإرادة الحرة والمحبة الباذلة للأقانيم. هذه النعمة ليست عطاءُ طبيعةٍ بلا إرادة مثل اندفاع الطبائع غير العاقلة مثل النار أو الماء، وهي ليست عطاءُ طبيعةٍ بلا تدبير أو خطة، أي تدفعها قوى طبيعية تسيطر على الشخص، مثل تصرُّفنا نحن البشر لأننا نخضع لطبع إنساني أكثر مما نتصرف كأشخاص أحرار، عندما تتسلط علينا شهوةٌ أو رغبةٌ عارمة، لا نقوى على مقاومتها.

هكذا كشف الذين قالوا إن التألُّه هو أن نصبح مثل الله في القداسة والقدرات الإلهية، عن أنهم يعانون من الاندفاعات الغرائزية وسيطرة الطبيعة الإنسانية القديمة عليهم التي تميل إلى الانتزاع والأخذ والقهر والاستيلاء، وهي كلها من حركات الطبيعة الساقطة. وهكذا تصوَّر هؤلاء، الله الثالوث، على أنه مثلنا، وأننا إذا اقتربنا منه، فإن اقترابنا واتحادنا به هو على غرار تصرفنا الإنساني الساقط، يجعلنا قادرين على الاستيلاء على ما ليس لنا. **وجُماع القول إن المخلوق من العدم لا يملك القدرات التي تمكِّنه من انتزاع أي شيء من الله؛ لأن المخلوق لا يمكن أن يسود على الخالق.**

ثانياً: هذا العطاءُ هو عطاءٌ شخصيٌّ أو أقنومي.

وقد استخدمنا كلمة "أقنوم" طوال ٧٠٠ سنة على الأقل بدلاً من الكلمة العربية "شخص"؛ لأن كلمة "شخص" في اللغة العربية تنطوي على الانفراد والعزلة، فهي تنصرف إلى حدٍّ كبير إلى الفرد الواحد الأحد. غير أن كلمة "أقنوم" السريانية الأصل هي أيضاً حجبت ما هي صفات الأقنوم، فأضحت تهدد الوعي بالغموض، إذ غابت معطيات أساسية، مثل حرية محبة الشخص أو الأقنوم، التزام الشخص أو الأقنوم

بالعطاء الذي يتفق مع التدبير (الإيكونوميا) الذي من أجله كَشَفَ وأعلن الثالوثُ عن ذاته الواحدة وثالوثية الأقانيم، على أنها شركة محبة متبادَلة.

ولم يقتصر الأمر على تعبيري "شخص وأقنوم"، فقد جرى جدلٌ ليس بقليل حول صحة ترجمة الكلمة اليونانية Perichoresis[1] وذلك حفاظاً على الأصل اللغوي للكلمة، وما إذا كان يعني الحلول المتبادَل، أو الاستيعاب المتبادَل أو الاحتواء المتبادَل بين الثلاثة أقانيم. على أنه وإن كان تعبير "الاستيعاب المتبادَل" على ذات درجة خطورة تعبير "الاحتواء المتبادَل"، باعتبار أن كلا التعبيرين يؤديان في النهاية إلى قَصْر العلاقة بين الأقانيم، واعتبارها علاقةً محدودةً، فإن تعبير "الحلول المتبادَل" هو التعبير الذي يعبِّر عن الحركة الحرة المطلقة الغير المقيَّدة بطبيعة؛ لأن الطبيعة والشخص، أو الطبيعة والأقنوم هما واحدٌ في الثالوث، فليس الثالوث هو طبيعة + ثلاثة أقانيم، بل هو الآب الذي منه الابن والروح القدس، حيث الطبيعة والشخص هما واحد، والجوهر والأقنوم واحد. إن شركة "الحلول المتبادَل" هي شركة شخصية، وقد دخلنا إليها بواسطة الابن المتجسد، بقدر ما رُسم في التدبير، فهي ليست عُرضة للاستهلاك الشخصي ولا هي تخضع لحرية المستهلِك؛ لأن الثالوث ليس غنيمةً كما يتصور الشاردون التاركون للإيمان المستقيم.

ثالثاً: إن عطية التبني هي عطيةٌ مُعلَنةٌ بتجسد الابن الوحيد، في حياته وتعليمه وموته وقيامته وصعوده، وقد حُدِّدت هذه العطية بما أُعلن في التدبير. أمَّا ما هو خارج التدبير، فليس له مكان في الوعي. ولذلك، ولكي لا يصول الخيال ويجول في فيافي

---

(١) أقرب كلمة لاتينية للأصل هي Circuminsession وأحياناً Coinherence وكلمات إنجيل يوحنا هي الأفضل "الآب فيَّ وأنا فيه" (١٠: ٣٨) وسبق هذا "أنا والآب واحد" (١٠: ٣٠) وأيضاً "كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب" (٦: ٥٧). والأهم هو "أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك" (١٧: ٢١). وطبعاً نحن في هذا الحلول المتبادل بواسطة الرأس أو الوسيط يسوع المسيح؛ لأن الرب يكمل عبارته: "ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" (١٧: ٢١)، فهي حركة المحبة التي لا تتوقف: "سأعرفهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم" (١٧: ٢٦)؛ لأن هذا الاستعلان الدائم هو عمل الابن رئيس الكهنة إلى الأبد على طقس ملكي صادق.

الفكر، فيشطح في تصورات لا تعرف الانضباط، فقد حدد لنا الابن التـــبني بـــثلاث حقائق مستعلنة:

- المحبة الباذلة.

- التواضع التام الملتزم بالطاعة

- قبول الشركة، ليس بواسطة تقدُّمٍ في أعمالٍ إنسانية، بل بعطيـــة الـــروح القدس نفسه، الأقنوم أو الشخص الثالث في الثالوث الذي ينير ويقـــدِّس، ويوحِّـــدنا بالابن المتجسد والفادي الذي يضعنا في "حضن الآب".

أُلوهية الابن المستعلَنة في عطية التبني:

أولاً: في أن الابن له المجد عرَّفنا بالآب.

ثانياً: إنه أشركنا في حياة الآب بواسطته وساطته.

ثالثاً: سَكَبَ علينا الروح القدس من عند الآب؛ لنكون قابلين لعطيـــة المحبـــة الإلهية (رو ٥: ٥)، وبذلك أدركنا –من انسكاب الروح القدس، وهي تضحية الروح بسكناه فينا– كيف ننتقل من عبودية الطبيعة إلى حرية الشخص، وهو انتقـــالٌ يـــتم بالمحبة، وهو ما يجعلنا "هيكل الروح القدس" حيث يسكن فينا الثالوث (يوحنـــا ١٤: ٢٣).

وهي سكنى حرية المحبة، فهي ليست سُكنى القمع، ولا هي سُكنى الســـيطرة، بل هي تبادُل المحبة الإنسانية التي نالت تقديس الروح بالمحبة الإلهية، أي تلـــك المحبـــة الإنسانية التي أعانها الروح القدس لكي تدخل في الحلول المتبادَل، وهـــو مـــا يصـــفه الرسول "بملء الله" (أفسس ٣: ١٩)، والمقصود بـــ"الملء" هنا، أي كمـــال العلاقـــة الثالوثية للآب والابن والروح القدس.

أمَّا أُلوهية الابن الذي فتح لنا حياة الثالوث، وأدخلنا في شـــركة مـــع الآب، فالمقصود بها هي:

١– قوته الشخصية أو الأقنومية كخالقٍ خَلَقَ الإنسان، وعَرِفَ كيانـــه تمـــام المعرفة، واتَّحد به وأحياه وعَبَرَ به من بوابة الموت والقبر إلى الحياة التي لا تموت.

٢– قدرته على العطاء، أي القوة الإلهية الخالقة والواهبـــة الـــتي رأيناهـــا في المعجزات، وهي التي تُدخِل الإنسان إلى الشركة المستحيلة على الطبيعة المخلوقة التي **لا تعرف، ولا تملك، ولا تستطيع**، فهي **لا تعرف** لأنها تجهل الحياة الإلهية، **ولا تملك** أن تقترب منها، وإذا اقتربت فكرياً أو إرادياً، فهي **لا تستطيع** أن تأخذ إن لم يُعطِ لهـــا الوسيطُ الهبةَ أو النعمة؛ لكي تعرف وتنال، وهو دور الإيمان الذي ينير الإنسان ويحرِّك إرادته لكي يطلب في الصلاة؛ لكي ينال.

٣– ويظل استعلان أُلوهية الابن في السرائر، ولذلك يُستدعى الروح القدس لكي ينال الإنسانُ معرفةً من الروح بالكلمة وبالصلاة، ومن النعمة التي تُوهَب بالروح القدس في السرائر.

التبني المستعلَن في المسيح – الخلفية التاريخية المعاصرة لنا:

عندما انحرفت سفينة التعليم –في العصر الحديث– عن ميناء التدبير، تاهت في عواصف الحقد وأنواء البحث عن هرطقات لا وجود لها إلا في عقل خالقهـــا الـــذي يكتب عنها، ومن هنا جاءت مقولة "بدعة تأليه الإنسان". ووصف تأليه الإنسان بأنه "بدعة" هي مقولةٌ حَكَمَ بها الذين لا يعرفون ألف باء المسيحية الأرثوذكسية على المعلِّم الرسولي أثناسيوس، وعلى ختم الآباء، كيرلس الكبير بأنهما مبتدعان. ووصف تأليـــه الإنسان بأنه بدعة اعتمد على الثقافة السائدة التي اتَّخذت "دونية الإنسان" أساســـاً، ومن ثمَّ جاء تعبير "تأليه" مستنداً على ثقافة تقول: "لا إله إلا الله"، على لسان الأغلب الأعم ممن يعيشون في مصر، وفي كل البلاد الناطقة بالعربية، لكي تتجاوب مع دعوات

الأنبياء في العهد القديم: "لا يكن لك آلهة أخرى". غير أن الذين أخذوا هذه العبارة، تركوا النبوة الفاخرة الهامة، وما يماثلها مثل: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"، أي لا تعبد هذه الآلهة التي كانت تملأ الحياة الكنعانية والآرامية صخباً، وهي حياة تقوم على الاستعمالات اليومية للآلهة، لكل يومٍ إلهاً، فجاء توحيد الله يهوه مؤكِّداً وحدانية الله بعد صراعاتٍ سُفِكَ فيها دم أنبياء الآلهة الأخرى (راجع قتل أنبياء البعل على يد إيليا النبي).

وعندما أعاد القمص متى المسكين اكتشاف كتابات الآباء التي غابت طوال ١٣٠٠ سنة، وربما أكثر، وبعد أن كانت راكدة على رفوف المكتبات الأوروبية، لا لشيء إلا لأنها كانت مدوَّنةً باللغة اليونانية؛ وجدنا أن تعبير "الشركة"، أو "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢بط ١: ٣) غريبٌ على الآذان، رغم أنه تعبيرٌ مدوَّنٌ في العهد الجديد، بل جاءت كلمات الرب يسوع نفسه في إنجيل يوحنا، بالذات الاصحاح ١٧ مخيفة لمن جعل غاية الحياة المسيحية هي مجرد التوبة، والتوبة فقط، أي الكَّف عن الخطايا، وهو تعليمٌ غير مسيحي؛ لأن الكلمة اليونانية القبطية الخاصة بالتوبة metanoia ضاعت، وحلَّت محلها الكلمة العربية، بينما اليونانية والقبطية كلاهما يؤكدان على "التحول الكياني في كيان الإنسان"، وهو ما يمكن رصده في:

- الانتقال من العبودية إلى التبني.

- التحول من كيان أصله العدم لم يحفظ صورة الله إلى كيانٍ جديدٍ، أصلُهُ ليس من العدم، بل من الماء والروح القدس. يُولد ميلاداً جديداً يحوِّل "بيت خيمتنا الأرضي" (٢كو ٥: ١) إلى "بناءٍ من الله بيت غير مصنوع بيدٍ أبدي" (٢كو ٥: ١)، وهكذا جاء البناء الذي لم يُصنع بيدٍ "الذي ليس من دم ولا من إرادة جسد ولا من إرادة رجل بل من الله" (يوحنا ١: ١٣)، وهو ذاك الذي وُلِدَ من البتول مريم، ليس من تسلسل آدمي، ولا من زواج بشري تلعب فيه الإرادة الإنسانية الدور الأساسي، ولا من رجلٍ تزوَّج من امرأة. **هذا هو يسوع**، ولذلك تغنَّى رسول المسيح بولس

بالميلاد الجديد قائلاً:

"لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح

ليس يهودي ولا أممي (يوناني) [الأصل العرقي]

ليس ذكراً ولا أنثى [الانتماء البيولوجي]

ليس عبداً ولا حراً [الانتماء إلى طبقة اجتماعية].

تلك كانت الصدمة الثقافية والروحية لكل ما ترسَّب في الثقافة الدينية والاجتماعية من مفاهيم. على أنه وبدلاً من أن تُسهِم هذه الصدمة في تجديد ما هو سائد، أدَّى الصراع إلى أن تتحول هذه الصدمة إلى خدمة ما هو سائد؛ فجاءت محاولات الهراطقة، وإن كانت قد باءت بالفشل في النهاية. ولكن -في العصر الحديث-بدأ الهدم من الداخل، وبدلاً من الهجوم على يسوع، في الأريوسية والنسطورية، بدأ الهجوم على الإنسان نفسه، (وهكذا عادت النسطورية من جديد، مع الأنبا شنودة الثالث، وقاد الهجوم ليس مَن هم من الخارج، بل ممَن يحملون مسئولية التعليم).

محاولات الهدم من الداخل:

فضلاً عن الهجوم على الإنسان نفسه، فقد تمثلت هذه المحاولات في بتر وقطع كل ما له صلة بين المسيح وبين المؤمنين عن طريق التعليم بأنه:

أولاً: لقد تم الخلاص بدفع الثمن للآب، وأُرضي الآب، وبذلك انتهي الخلاص في يوم الجمعة الكبيرة، يوم الصلبوت، ونحن مجرد شهود.

ثانياً: بأن ما جاء به المسيح هو خاصٌّ به وحده، وليس له علاقة بنا نحن

اخوته باعتباره هو "البِكر" بيننا (رو ٨: ٢٩).

أمَّا ما هو خاص بالمسيح وحده، فيمكننا أن نصفه بأنه ثابتٌ بشكل وبأسلوب واضح، ثنائي المبنى في قانون الإيمان، فهو مكوَّنٌ من شقين لا يمكن فصلهما، الشِّق الأول هو:

- الواحد مع الآب في الجوهر – مولود من الآب قبل كل الدهور – مولود غير مخلوق.

والشِّق الثاني هو ذاته:

- نزل من السماء – تجسَّد من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم.

أمَّا ما يربط بين الشِّقين، فهو:

- هذا الذين لأجلنا نحن البشر.

وباقي التدبير معروفٌ لنا، إذ لا ينتهي عند دينونة الأحياء والأموات، بل بالروح القدس، وبالكنيسة، وبمعمودية واحدة، ثم خاتمة التدبير "وقيامة الأموات وحياة الدهر الآتي".

التدبيرُ إذن هو نسيجٌ واحدٌ لا يمكن فصل سُداه عن لُحمته؛ لأن هذا النسيج هو الحياة المسيحية الأرثوذكسية الحقيقية التي شُيِّدت على المولود من الآب قبل الدهور – الواحد معه في الجوهر – المولود أزلياً و لم يُخلق مثلنا – لأنه إلهٌ من إله – نورٌ من نور، والذي لأجلنا نحن البشر نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنَّس.

وبالتالي، فما هو خاصٌّ بالرب يسوع، دَخَلَ حياة الإنسان لكي يبني من جديد ذلك البناء غير المصنوع بيد: "وبيته نحن" (عب ٣: ٦).

ما أعطاه لنا المسيح، هو من حياته، وليس من الخليقة التي خُلقت من العدم:

يبدو أن الخلق من العدم لم يؤسِّس في الوعي المعاصر حقيقةَ أننا لا نملك، ولذلك لا نستطيع، وأننا نحتاج إلى نعمة من الخالق، ليست مما هو لنا. فما هو لنا، هو ما نملكه، وما نملكه هو في دائرة الاستطاعة الإنسانية. أما ما لا نملكه، وما لا نستطيعه، وما نحتاج إليه من نعمة، فلا يمكن أن يكون الواهب والعاطي فيه هو الإنسان، بل هو الله الكلمة الذي دخل دنيا الإنسان، و"أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

لقد جاء المسيح الرب الإله من الإله، والنور من النور، لا لكي يبقى الإنسان مقيَّداً بقيود الوجود البيولوجي بالتناسل الآدمي، بل لكي يُولد من الله (يوحنا ١: ١٣). وقد أكَّد أن هذا هو سلطان الله وقدرته على أن يتجاوز الدم واللحم، أي الكيان الإنساني، وإرادة الجسد أي الإرادة المخلوقة الإنسانية، وإرادة العمل في اتحاده بزوجة، فقد كان من الضروري أن يضع الله حداً لهذه الدائرة، فنعود نرى قوة الحياة: "مولودين ثانيةً لا من زرعٍ (بذرة)[1] يفنى، بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد .. وكلمة الرب فتثبت إلى الأبد" (١بطرس ١: ٢٤-٢٥).

ولكن جاء الزِّيف مع حركة الإصلاح في القرن ١٦ إذ فُصلت كلمة الله عن الروح القدس، وحلَّت كلمات الأسفار محل الروح القدس، بينما الكلمة هي عمل الله،

---

(١) كلمة زرع σπερμα تؤكد لنا أن الكلمة الحية الباقية هي ليست مجرد نطق مثل نطق الإنسان، بل هي تحمل ثلاثة أشياء: ما يُقال، وهو هنا الإرادة الإلهية العاملة – النعمة المعطاة – قوة البقاء للعمل الإلهي. ولكن تزييف الخلق الجديد جاء مؤسَّساً على اعتبار أن توبة الإنسان هي ميلاده الثاني، دون الإشارة الى المعمودية، وبالتالي أصبح الإنسان يلد نفسه بنفسه بقوة الإرادة، كما صار النسك المزيف هو حمل الصليب بدون الروح القدس، فعاد الإنسان إلى كيانه القديم تحت غطاءٍ كاذبٍ، هو التجديد.

سواء في العبرانية أم في اليونانية؛ لأن الكلمة العبرية Davar لا تختلف عن الكلمة اليونانية Logos فهي زرعُ الله الذي زرعه فينا، وهو ما يؤكده الرسول: "زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطئ لأنه مولودٌ من الله" (١يوحنا ٣: ٩). فهو لا يستطيع أن ينكر أبوة الآب لأنه أدرك أن الوجود الإنساني القديم كله، بكل ما فيه، هو غير قادر، ولا يملك حياةً أبدية.

* فمن ميلاده البتولي بالروح القدس، وُلدت الطبيعة الإنسانية الجديدة، أو آدم الثاني. غير أن ذلك الميلاد، لم يكن سوى البداية؛ لأنه أخذ بدء الإنسان، أي الحَبَل والولادة، وجاء النمو في القامة (لوقا ٢: ٥٢) لمواجهة الموت وشر الإنسان في المجتمع الذي أحاط به وصلبه.

* وبموته على الصليب، أباد الموت وأظهر القيامة.

* وبالقيامة، أعطى الخلود والحياة الأبدية.

* وبالصعود، جَلَسَ عن يمين الآب، لكي مِن على عرش الألوهة، يملأ الكل: "وعند صعودك إلى السموات إذ ملأت الكل بلاهوتك"، وهو تعبير عن فيضان القوة الحية والمحيية في سرائر الكنيسة.

وهكذا جاء المولود من الآب قبل كل الدهور ليعطي حياةً أبديةً، وهو إلهٌ من إله لكي يغلب الموت، ونورٌ من نور لكي يقود الإنسانية لمعرفة الآب.

ما هو غير مخلوق، ولا ينتمي إلى ما خُلق من عدم:

* جاء الاغتسال من الطبع القديم بروح إلهنا (١كو ٦: ١١)، ولذلك صار الجسد هيكلاً للروح القدس (١كو ٦: ١٩). أخذنا ذلك "عربوناً" (٢كو ١: ٢٢)، ولكنه كان الخلق الجديد (٢كو ٥: ١٧). هو بناءٌ من الله "غير مصنوع بيد أبدي"

(٢كو ٥: ١)، ولذلك هو حيٌّ وسوف يبلعُ المائت (٢كو ٥: ٣)، ذلك الهيكل المقدس هو "مسكن الله في الروح" (أفسس ٢: ٢٢)، ولذلك صارت الحياة "هي المسيح" (أفسس ١: ٢١)؛ لأننا نوجد "في المسيح" (فيلبي ٣: ٩)، فهو يحل فينا "بالإيمان" (أفسس ٣: ١٧).

* كل هذا هو بعبارةٍ لا تقبل التأويل: "غير مصنوع بيد" (كولوسي ٢: ١١)، ولذلك سُميَّ "ختان المسيح" (كولوسي ٢: ١١)، وليس ختان الشريعة المصنوع بيد، وهو المعمودية (كولوسي ٢: ١٢).

* ولنفس السبب قدَّم الربُّ جسده، حيث "المسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع بيد الذي ليس من هذه الخليقة" (عب ٩: ١١)، أي السماء التي لم يصنعها البشر والتي بيد الله الخالق، وهي البناء الأبدي، حيث يصير لنا نحن أيضاً جسداً سمائياً على نفس ومثال جسد الرب، أو حسب دقة الرسول: "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١)، الجسد السمائي الذي أخذ طبيعة سمائية مجيدة روحانية حسب التسليم الرسولي (١كو ص ١٥ كله)، وهو ذات جسدنا الذي يتغذَّى بذات "الذبيحة السمائية الإلهية"؛ لأن هذا هو أحد مكونات الحياة الأبدية؛ لأننا لن نحيا إلى الأبد بذات الجسد الترابي الذي يحيا حسب العناصر الترابية من طعام وشراب وملابس ومرض وضعف وهوان، وهي صفات الجسد الذي لم ينل بعد قوة القيامة، بل أخذها كعربون لكي يكمل تجديد الجسد، ولذلك يقول رسول الرب: "نحن الذين أخذنا، أو لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا" (رو ٨: ٢٢)؛ لأن كمال الفداء هو بالقيامة.

ما هو غير مخلوق، ووُهِب بالروح القدس، هو المتألِّه بالنعمة:

التألُّه هو نعمة البقاء الأبدي، وهو شركتنا في حياة عدم الموت التي تخص الله وحده: "الذي له وحده عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه" (١ تيمو ٦: ١٦)؛

لأن الذي خُلِقَ من العدم هو فانٍ (تجسد الكلمة ٤: ٦)، ولا يمكن أن ننال شيئاً بعيداً عن طبعنا إلا إذا وُهِبَ لنا. فالتألُّه عطيةٌ وليس انتزاعَ أُلوهةٍ كاذبة، الذي سقط فيه آدم، أي التألُّه بثنائية المعرفة. وقد سَخَرَ اللهُ نفسه من سقوط آدم، وقال في تهكُّم: "هوذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر" (تك ٣: ٢٢). غير أن الله لا يعرف الشر؛ لأن معرفة الله ليست ازدواجية ثنائية تأتي من تدرج وصراع واستنتاج وتفضيل ودراسة واختيار بين أمرين أحدهما خير والآخر شرير. نحن نتدرج في المعرفة، ونصارع الأهواء والأفكار الخاطئة، كما أننا نفاضل وندرس ونقارن؛ لأننا لسنا كُلِّيي المعرفة، عالمين أو عارفين كل الأشياء. وحده الخالق الذي جاء بكل الأشياء من العدم هو الذي يعرف بداية وحدود كل مخلوق، وهو لم يرسم أو يحدد انحراف أي مخلوق نحو الشر؛ لأنه ليس خالق الشر، بل هو كلي الصلاح.

وعندما يقول المزمور "الساكن في السموات يضحك .." (مز ٢: ٤)، فكلمات المزمور تشرح لنا كلمات سفر التكوين المتعلقة بالسقوط؛ لأن

أولاً: "لن تموتا"، تعني أن الله غير صادق.

ثانياً: "عارفين الخير والشر"، الله يعرف الخير وحده، أما إذا كان يعرف الشر، فقد صار مخلوقاً.

ثالثاً: "تكونان مثل الله"، وهي تعني تحول الإنسان بقدراته المنفردة، وليس بواسطة النعمة أو الشركة أو المحبة. هي تأليه الإنسان لذاته بالمعرفة المزدوجة، أي معرفة الخير والشر، وهي المعرفة التي كانت أصلاً عند الشيطان، عندما كان ملاكاً ثم سقط، وصارت معرفة الخير والشر متأصلةً فيه، ولذلك يقول رسول الرب عن الشيطان إنه يغيِّر شكله إلى "شبه ملاك نور" (٢ كو ١١: ١٤)، لا أن يكون ملاك نور. وحتى عندما شهد الشيطان للمسيح، قال له الربُّ: "اخرس"، ليس فقط لأنه لا يحتاج إلى شهادة الكذاب، بل حتى لا يرافق الرب في خدمته، ثم يكذب في أي نطق على ألسنة الذين أخرج الرب منهم الشياطين أو الأرواح النجسة.

بدعة تأليه الإنسان:

وصف تألُّه الإنسان بأنه بدعة، هو أصلاً من اختراع الأنبا شنودة الثالث، ولكنه صار عند الأنبا بيشوي هو ما يميز الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة القبطية، وهو ادعاءٌ يجعل أثناسيوس الرسولي بيزنطياً وكيرلس الكبير بيزنطياً أيضاً، وهو ما ينافي الحقيقة التاريخية؛ لأن الذي لا يعرفه الأنبا شنودة ولا الأنبا بيشوي هو أن التعليم عن تألُّه الإنسان كان سلاحاً حاداً في القرن الرابع والخامس في الرد على الأريوسيين، لأنه تعليمٌ عن خلود الإنسان[1]. والادعاء بأن التعليم بتأله الإنسان هو بدعة هو ادعاءٌ خبيث جداً؛ لأنه يحتوى على ثلاث أكاذيب كبرى تهدد الحياة المسيحية الأرثوذكسية بالفناء التام:

الأولى: انعدم شركة المحبة بين الثالوث والانسانية وبقاء الإنسانية في علاقة خارجية، وهو ما يعني أن الحياة الأبدية هي حياة مخلوقة من اجتهاد الإنسان، لا عطية تُعطى لفداء الإنسان من الموت، بل صارت هي محصلة أو نهاية أو مكافأة الإنسان على أعماله الفاضلة.

ثانياً: صارت النعمة الإلهية عملاً شيطانياً؛ لأن الادعاء بأن التأله هو اشتهاء الأُلوهة، وأن يكون الإنسان مثل الله، يعني أن يصبح الإنسان مثل الشيطان لأنه اشتهى

---

(١) سبق أن نشرنا دراسة عن هذا الموضوع بعنوان: "الشركة في الطبيعة الإلهية، دراسة للأصول الرسولية الأرثوذكسية للخلاص عند القديس أثناسيوس وآباء الكنيسة الجامعة"، القاهرة، ٢٠٠٧. وهي منشورة على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية. ونضيف هنا أن التعليم عن تأله الإنسان هو أيضاً تعليم الآباء السريان، وبالذات أفرام السرياني، راجع دراسة:

Norman Rassell: The Doctorine of Deification In the Greek Greek Patristic Tradition. 2004.

وعلى وجه التحديد صفحات ٣٢١ – ٣٣٠ عن التأله في التقليد السرياني واللاتيني.

الألوهة حسب الادعاء السابق، الأمر الذي يتعارض كلياً مع عبارات الرب يسوع نفسه: "كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل" (متى ٥: ٤٨).

الثالث: صارت السرائر، وهي شركتنا الكيانية في كيان المسيح، كما لو كانت هي وسيلة لإعادة الإنسان إلى خطية الشيطان، وليست الفداء والنعمة.

الاتهام بالشِّرك:

أنتج وصف تأليه الإنسان بأنه بدعة، اتهاماً بالشِّرك طبقاً لمنطق المدعي. واتهام الأنبا شنودة للأب متى المسكين ولكاتب هذه السطور بأننا دعاةُ شِركٍ، هو اتهامٌ ناتجٌ من فراغ تاريخي وآبائي ولاهوتي. من فراخ تاريخي؛ لأن الذي نشر الاتهام لم يدرس تاريخ العقائد المسيحية، وكنا قد ذكرنا منذ قليل أن التعليم بتأله الإنسان كان سلاحاً حاسماً في الصراع ضد الأريوسية. ومن فراخ آبائي؛ لأنه لم يدرس الآباء الذين شرحوا التسليم الرسولي للإيمان المسيحي. ومن فراغ لاهوتي؛ لأنه أول واعظ في الكنيسة نال شهرةً غير مسبوقة في التعليم الذي حول الإيمان بالمسيح من علاقة شركة إلى مجرد سلوك أخلاقي فاضل، وهو تحوُّلٌ خطير؛ إذ لا فضائل حقيقية بلا شركة في حياة الثالوث. ولك عزيزي القارئ أن تلاحظ مدى القدرة على خلط الأوراق عندما تقرأ ما كتبه تلميذه الوفي أنبا بيشوي اعتراضاً على التعليم بتأله الإنسان في المسيح، من أن آباء الكنيسة القبطية عُرف عنهم الاتضاع، ولذلك لم يعلِّموا بتألُّه الإنسان أو تأليه الإنسان (رغم أنه لا يوجد فرق حقيقي بين اللفظين).

الكبرياء الحقيقية هي أن يُخلِّد الإنسان ذاته بقدراته، وأن يستطيع الإنسان أن يحيا بما كسب من فضائل حياةً أبدية مقدسة بدون شركة في حياة الثالوث. هذا بعكس ما ظهر في حياة الآباء النساك الذين تلقِّبهم الليتورجية القبطية بـ"لُبَّاس الصليب". فأن يلبسَ إنسانٌ الصليب، فإن ذلك يعني أن يحيا ذبيحةً حيَّةً عقلية (رو ١٢: ١)، وأن يكمِّل معموديته (رو ٦: ١-٨) بالصلب والدفن والقيامة مع المسيح.

والأمر ليس مقصوراً على لقب "لُبَّاس الصليب"، فقد دخل أيضاً مع الليتورجية القبطية واليونانية لقبٌ آخر، هو: "لابسي الروح القدس"، وهو أحد ألقاب القديس مكاريوس الكبير "اللابس الروح". لم يدرك الأنبا شنودة ولا الأنبا بيشوي أن التأله لا علاقة له بالتواضع، فقد عاش النُّساكُ التألُّهَ الحقيقي بالممارسة، أي بالاتحاد بالرب يسوع بالروح القدس. وما سُجِّل في التاريخ عن أن أجساد بعض هؤلاء لم يدُبّ فيها الفساد، إنما هو تجلي الجسد الترابي بنعمة حياة الدهر الآتي، وهذا بدوره هو أحد جوانب التألُّه بالنعمة. فأين ذلك من المصير الذي يريد كلاهما (أنبا شنودة وأنبا بيشوي) أن يلقي الكنيسة فيه؟!!! هما لا يدريان أنهما يطوحان بها إلى بئر الانفصال عن الله، كأن لنا حياتين، واحدة عند الثالوث، والأخرى لنا، وأن كليهما لهما ذات الاسم "حياة أبدية"!!! فكأننا فعلاً أبديون بالطبيعة، أي آلهة بالطبيعة، في حين أن ما خُلق من العدم لا يمكن أن يكون أبدياً مهما كانت فضائله، ولا يمكن أن يبقى إلى الأبد بقدراته، وإلا فالله ذاته يكذب –حاشا لله– عندما يؤكد أن الابن بُذل "لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له **حياة أبدية**" (يوحنا ٣: ١٦)، وأن هذه الحياة الأبدية هي في المسيح يسوع ربنا (رو ٦: ٢٣)، وأيضاً "لكي إذا ما آمنتم تكون لكم حياة أبدية باسمه" (يوحنا ٢٠: ٣١)، أي في شخصه.

الاتهام بالشِّركِ عبثٌ صبياني خطير:

لم يكن الاتهام بالشرك، إلا اتهاماً سياسياً، ينطوي على اللعب بالنار، فالإسلام يحارب الشرك، وقتلُ المشركين هو أحد أهداف الإسلام السياسي، وهنا يبدو وكأن الأنبا شنودة الثالث أراد أن يُسلِّم كل من اختلف معه كنسياً للمجاهدين المسلمين، طالما أن التصفية الجسدية غير ممكنة، بل مستحيلة من وجهة نظر المسيحية الحقيقية، بينما هي مسموح بها بل مطلوبة عند الإرهابيين.

عندما يُحرِّم الإسلام الشرك ويحاربه، فهو يفعل ذلك من خلال التاريخ، وعلم الكلام؛ لأن الإسلام بمقتضى الشهادتين الأولى والثانية وآيات القرآن يحارب الشرك.

ولكن الإسلام لا يعرف الشركة، ولا تجسد الابن، ولا حياة شـــركة الثـــالوث، ولا يعرف موضوعاً اسمه الفداء أو الخلاص، والشريعة هي الأساس الوحيـــد لتعامـــل الله الواحد الأحد مع البشر، ولا يوجد لديه تعليم عن النعمة. هذه هي خصائص الإسلام، ولذلك فإن إضافة آخر أو ضم آخر إلى الله، ينفي دور الشريعة، وهو منطق سليم.

لكن تألُّه الإنسان في المسيحية ليس بمثابة إضافة آخر إلى الله. فلم يكن يسوع نبياً أو مجرد بشر أُضيف وأُشرِكَ بالله، بل كان ولا زال هو ابن الله الذي أراد أن يصير إنساناً لكي يُشرك الإنسان فيه في حياة الله. لقد تغيَّر التوحيد، ليس لأن الله هو الذي تغيَّر، بل تغيَّر التعبير عنه. كان الله واحداً، فاعلن الله عن ذاته ثلاثة أقانيم. ولم نكـــن نعرف شيئاً عن حياة الله الذاتية، ولكن جاء الابن وأخبرنا عنها (عب ١: ١ مع يوحنا ١: ١٨): "الله لم يره أحد قط. الإله الابن الوحيد (حسب أقدم المخطوطات اليونانية والقبطية) الذي هو في حضن الآب هو خبَّر"، فصار التوحيدُ شركةً، وبالتالي، أصـــبح الشِّركُ هو حركة المحبة الإلهية في الثالوث: "الآب يحب الابن وقد دفع كل شـــيء في يده" (يوحنا ٣: ٣٦)، فالابن هو وحده "الذي رأى الآب" (يوحنا ٦: ٤٦)، وبمحبة الابن للآب فعل كل ما يرضي الآب (يوحنا ٨: ٢٩). إذن، فقد جاء الشِّركُ بتوحيد حقيقي. وعلى ذلك، فعبارة "الشِّركُ في المحبة توحيدٌ صحيح" هي ملخَّص حقيقي لكل سيرة من عرف المحبة الإلهية.

وفي ضوء ما تقدم، يصبح من قبيل العبث الصبياني أن يتحول ما هو أصيل في العقيدة المسيحية إلى اتهام سياسي وبلاغ من الكنيسة إلى المجاهدين ضـــد الثـــابتين في مسيرة الأرثوذكسية.

* ويصبح عبثاً صبيانياً خطيراً ذلك الاتهام الذي لا يقيم وزنـــاً للشـــركة في الثالوث، وهي شركةٌ أُعطيَ لنا -بمحبةٍ ثالوثية- أن نشترك فيها؛ لأن الشِّركَ هنا ليس من الكبائر، بل من خصائص رسالة الإنجيل. هو ليس إضافة آخر إلى الله، بل تنازل الله لكي يجعل الذين يؤمنون "شركاء الطبيعة الإلهية" (١بط ١: ٣-٨). وهي شـــركة -

كما يكتب رسول الرب- "فضيلة، معرفة، تعفف، صبر، تقوى، مودة أخوية، محبة"، ويختم رسول الرب بمن صاروا شركاء الطبيعة الإلهية؛ "لأن الذي ليس عنده هذه (أي ما ذكره عن الاجتهاد في المعرفة والتعفف والصبر والتقوى والمودة والمحبة) هو أعمى قصير النظر" (١بط ١: ٩)، فالأمر إذن، ليس أمرَ استيلاءٍ على الأُلوهة واقتحام الحياة الإلهية، وهو ما يجول في فكر المعترضين بأن الانسان يصبح قادراً على كل شيء، باعتباره استولى على كل ما يخص الألوهة مثل الوجود في كل مكان .. إلخ أي تحول بالاستيلاء، وهو مستحيل، بل هو أمرُ تحولٍ بالنعمة المستعلَنة في التدبير.

الفصل الخامس

الصراع بالنصوص

عندما تحتشد الأطراف المتصارعة خلف ما لديها من نصوص، ويتحول الحوار إلى عراكٍ وصراع بالنصوص، تضيع رؤية استعلان ابن الله عن المتصارعين؛ لأن المسيح يسوع مُعلَن في اللحم والدم وفي الحياة التي تحدد معاني النصوص لا العكس. لذلك لا تعرف المسيحية الأرثوذكسية براهين النصوص، فهي لم تعرف براهينَ مستمدةً من كلمات الكتاب المقدس، وإنما تعرف شهادات الذين ذاقوا النعمة الإلهية وكتبوا لنا من أجل التعليم المستقيم. لقد وقع الذين درسوا ملفات التاريخ الكنسي في الدراسات الحديثة التي كتبها علماء التاريخ الكنسي -وبعض هؤلاء معاصرين لنا- في "مطب" النظام العقلي الإنجيلي الذي ساد جامعات أوروبا منذ حركة الإصلاح، وأحد جوانبه هو Prove Texts أي "البرهان بالنص"؛ لأن حركة الإصلاح قامت على عدة ركائز، كان أحدها Sola Scriptura أي "الكتاب المقدس وحده" في مواجهة التقليد، أو بالحري التسليم الكنسي. ومن هذه الخلفية ظهرت دراسات تاريخية جيدة، ولكنها كانت تحتوي -بوعي أو بدون وعي- على المبدأين السابقين: البرهنة عن طريق النصوص - الكتاب المقدس وحده، أي النص وحده، دون الاستعانة بوثائق المعاصرين، وهؤلاء هم آباء الكنيسة.

وجاءت دراسات القرن الـ ٢٠ بمراجعات شملت الكثير، ولا تزال المراجعات قائمة في جامعات العالم. وهي مراجعة لِما صدر من دراسات تاريخية، لم يكن فيها الحياد سائداً، بل غلبت عليها أحياناً النزعة المذهبية، فقد كان صراع الديكة

بين الكاثوليك وفروع البروتستانتية، حامي الوطيس.

ما هي المآخذ والعيوب الأساسية على صراعات النصوص؟

أولاً: فقدت المسيحة جوهرها الحقيقي، وهو استعلان المحبة الإلهية من الآب بالابن في الروح القدس. والاستعلان له شهادات، أولها ما تمارسه الكنيسة من صلوات، شهادة المعلمين، الأسفار الإلهية، وثائق المؤرخين المسيحيين وغير المسيحيين، وهذه هي الأركان الأربعة للمسيحية الأرثوذكسية: الصلوات – كتابات المعلمين – الأسفار – وثائق التاريخ. وقد كان تحييد هذه الشهادات أو حذفها، والاكتفاء بالأسفار المقدسة، أسفار الكتاب المقدس، هو أكبر إساءة حدثت للتاريخ القديم؛ لأن التاريخ في هذه الحال أصبح هو قراءة ودراسة المؤرخ المعاصر فقط، وما اختاره هو كوجهة نظر شخصية في أغلب الأحيان، يغلب عليها النزعة المذهبية، لا القراءة الدقيقة للتاريخ القديم.

وأكبر مثال لما نقول، هو كل ما دُوِّنَ عن الأريوسية منذ القرن الـ ١٧ على أنه صراعٌ حول تفسير بعض نصوص العهدين بين أثناسيوس وأريوس. حيث غاب عن هذه الدراسات أن المسيحية علاقة إلهية – إنسانية مصدرها وقوامها هو الإله المتجسد. وأذكرُ في مناسبة عيد القيامة سنة ١٩٦٨ أن جرت مناظرةً على BBC وكانت بين مدرِّسين من جامعة كامبريدج واكسفورد، ومدرِّسين من لندن وليدز حول القيامة، وكان كلاهما يحاجج الآخر بأن اختلاف الأناجيل الأربعة يؤكد وجود تضارب في سرد قيامة المسيح، ويفتح باب الشك، ويصل الحوار الساخن إلى نقطة حاسمة: كيف يشرح الضيفين من لندن وليدز –وكلاهما مدرس تاريخ: المعمودية والعشاء الرباني؟ وكان شرحهما صدمةً للأستاذ C. Moule أُستاذ العهد الجديد السابق (رَقَدَ منذ عامين)؛ لأنهما قصرا شرحهما على النصوص متجاهلين كيف كانت المعمودية تُمارَس في روما حسب الوثائق التاريخية المسيحية وغيرها؛ لأن المعمودية –حسب كل الوثائق القديمة– هي شركة في موت وقيامة المسيح، ابتداءً من رو ٦: ١ — ٨ حتى التقليد

الرسولي لهيبوليتوس، لذلك أكَّد الأستاذ C. Moule على أن بشارة الموت والقيامة لم تقتصر على الأناجيل الأربعة، أي أنها لم تكن فقط مجرد نصوص، بل كانت تمارَس في المعمودية والعشاء الرباني اللذان كانا نقطة الانفصال التام عن المجمع اليهودي، وفي كليهما اعترافٌ بموت وقيامة المسيح، وفي كليهما يشترك كل مسيحي في موت الرب وقيامته.

لماذا اختلف الشهود الأربعة: متى – مرقس – لوقا – يوحنا؟ الاختلافُ هو شهادة. فكلٌّ منهم يكتب ما يعرفه، والاتفاق التام يؤكِّد كذب الأربعة، ولكن الاختلاف يؤكد أن هناك حقيقة واحدة يعبِّرُ عنها كلٌّ منهم حسب اختباره.

ونعود إلى المآخذ على الدراسات التاريخية الخاصة بالأريوسية، خصوصاً وقد ظهرت دراسة مصرية قُدِّمَت إلى الجامعة الأمريكية في القاهرة تقول إن أريوس كان يقود حركة توحيد ضد ما دخل على المسيحية من أفكار ضد التوحيد، وكان أغرب ما جاء في الرسالة التي نال صاحبها درجة الدكتوراة!!! هو عجزه عن أن يشرح لنا استخدام الألقاب: الإله – الرب – المخلص، ليسوع المسيح. والمراجعة التامة للمراجع التي عاد إليها مقدِّم الرسالة تؤكد أنه في الواقع لم يقرأ ما ورد في أغلب هذه الدراسات، و لم يحاول حتى أن يتصدى لما ورد فيها.

على أن شطحات الدارسين ليست قاصرة على الجامعة الأمريكية في القاهرة، ففي معهد الدراسات القبطية لدينا دراسة عن "عقيدة التجسد الإلهي" من إعداد الدكتور القس بيشوي حلمي – مراجعة وتقديم الأنبا بيشوي والأنبا موسى، وعلى ص ٢١ منها يقول الكاتب:،"ولما أسلم يسوع الروح اقترب إبليس منه ليقبض على روحه ويذهب بها إلى الجحيم كما هي عادته مع كل الذين سبقوه، وذلك ظنّاً منه أنه شخص عادي، حينئذ رفَعَه المسيح من الوسط مسمراً إياه بالصليب، وجرَّده من رئاسته، وشهَّر به جهاراً ظافراً به .... وذهب إلى الجحيم" أهـ.

وأقل ما يقال عن هذا التفسيرٌ، أنه يحتاج إلى قاعدة تاريخية، أولها قراءة الآباء

لنص (كولوسي ٢: ١٤) عن الصلب وتمزيق الصك. ثم بيان ماذا يعني صلبُ الشيطان على الصليب بالنسبة لطقوس وصلوات الليتورجية، وبالذات القداسات؟ لو كانت هذه الفقرة بالذات قُدِّمت في رسالة إلى أي جامعة، لكانت كافية لرفضها لافتقارها إلى الأساس التاريخي.

ليست كل فكرة -مهما كانت مُغرية- صادقة؛ لأن المسيحية ديانة تاريخية وليست فقيرة، بل غنية بشكل فاحش في مصادرها التاريخية، ولكن المشكلة هي مشكلة المسيحيين وغير المسيحيين الذين يحلو لهم العبث بالتاريخ أو تجاهله.

وإذا أردنا أن نسوق مثالاً معاصراً على العبث بالتاريخ، فلن نجد أفضل من قصة دان براون: "دافنشي كود"، والتي حصد كاتبها من الرواية والفيلم ما يزيد على ٧٠ مليون دولار حسب ما ذكرته الجرائد. فقد سَمَح الكاتب لنفسه كإنسان يعيش في القرن الـ ٢١ أن يكتب ما يشاء عن يسوع، دون أن يكون شاهدَ عيانٍ. وقد سألني واحد من أكبر أطباء القلب في محاضرة عن الرواية في إحدى الكنائس: مَن هم شهود العيان؟ وقلت: متى – مرقس – لوقا – يوحنا، هل تعرف هؤلاء؟ وضحك الحاضرون، وضحك الطبيب لأنه لم يكن يعرف أن الأربعة الإنجيليين هم شهودُ عيان.

هنا يهمنا أن نشير إلى أن صراع الكنيسة الجامعة ضد الأريوسية بالذات، كان قد دار حول:

أولاً: طبيعة الثالوث.

ثانياً: رسالة الإنجيل في حياة الابن الإله المتجسد.

ثالثاً: عطاء الثالوث لنا: التبني – الحياة الأبدية – غفران الخطايا – سكنى الروح القدس – القيامة من الأموات.

رابعاً: أن هذه العطايا أو هذا العطاء، إنما يُعطى في السرائر Sacraments

هذه الأركان الأربعة، أو الأعمدة الأربعة، هي الكنيسة في جوهرها، حيث يحل الثالوث، فيوزِّعُ علينا من خلال الوسيط، هبات التبني، والحياة الأبدية، وغفران الخطايا، والاستنارة. هذه العطايا التي تعطى لنا بواسطة الوسيط، هي حياة وهبة، وليست مجردَ أفكارٍ يمكن أن تُناقَش وتحسم من خلال النصوص.

إن ما لدينا من نصوص يحتوي فقط على:

- اسم العطية الإلهية
- فاعليات العطية الإلهية
- مصدر العطية الإلهية.

ومصدر العطية الإلهية هو عمل الثالوث فينا. النصوص شهادات تعلن الاسم وفاعلية العطية، وهي موجهة إلى مصدر العطية.

الفرق الجوهري بين العطية والفكرة:

لا شك أن المسيحية تخاطب العقل لقبول الرسالة الخاصة بالخلاص، وبحرية الإنسان من رباطات التاريخ الشخصي القديم الذي يُسمى باسم آخر شائع هو "الخطية". نحن لا ننكر دور العقل، ولكن هنا مفترق الطرق:

أولاً: المسيحي لا يحيا بفكر جديد نابع من قناعات فكرية أو قلبية، بل بحياة جديدة وُهِبَت بالروح القدس لخلق كيان جديد. عبَّر عنه الأب متى المسكين في دراسة موجزة بعنوان "الخلقة الجديدة"، أثارت عاصفة نقد؛ لأن الذين درسوها كانوا يعيشون بالفكر لا بالعطية، أي هبة الحياة الجديدة في يسوع المسيح.

الفكر أو الأفكار يحددها الشخص، وقد يكون لنصوص الكتاب المقدس

نصيب الأسد، ولكن كما نعرف من الواقع الإنساني نفسه أن الذي يشاهد جمال عروس ويتغنى به ولا يتزوجها طالما أن الزواج متاح، لا يبرح عالم الأفكار، ولا علاقة له بالواقع، فالزواج ليس مجرد تأملات، بل هو شركة وحياة. هكذا الأمر بالنسبة لواقع الحياة المسيحية، لا يمكن أن تحددها فقط نصوص الكتاب المقدس.

ثانياً: التحول الكياني هو ما غاب عن الأريوسية، ولذلك كانت براهين أثناسيوس التي ساقها مفنداً سوء استخدام نصوص الكتاب المقدس، تعتمد على الممارسة؛ فـ "بكر كل خليقة" هو قائد التجديد، لا الذي كان هناك وقتٌ – بحسب أريوس– لم يكن فيه موجوداً. وبداءة الخلقة الجديدة، هو مَن جاء بالخلق الجديد (٢كو ٥: ١٧-٢١). وأن "أبي أعظم مني" هو استعلان واقع حياة المتجسد الذي أخذ صورة العبد (فيلبي ٢: ٦). وهكذا، فهناك كثير من نصوص كانت تصبُّ في اتجاه واحد، إلا أن واقع الممارسة الكنسية أعطاها أبعاداً أخرى انطلاقاً من المعمودية – التبني – الحياة الأبدية – تجديد الإنسان.

سوف تمر علينا سنوات قبل أن يعود إلينا الوعي بأن ما جاء به العهد الجديد ليس علاقة قائمة على نصوص، بل على شخص المسيح، وأمام الجيل الذي أنتمي إليه خيارين:

- خيار النصوص

- خيار الشخص.

ويمكننا أن نقول بمنتهى الصراحة والوضوح إن خيار النصوص هو عودتنا الصريحة إلى موسى وإلى شرائع العهد القديم التي أُبطلت في المسيح. هذا الخيار يظهر بشكل واضح فيما نسمعه من بعض الوعاظ الذين يقولون لنا إن المسيح ربنا قال: "ما جئت لأنقض بل لأكمل" (مت ٥: ١٧)، متجاهلين أن فعل "ينقض" يعني أن يعلِّم الرب بما هو ضد "الناموس أو الشريعة والأنبياء"، ومتغاضين عن أن أحكام الشريعة لم

تنفَّذ في (يوحنا ص ٨) عندما رفض يسوع رجم المرأة الزانية التي أُمسكت في ذات الفعل، وعندما كان يشفي في السبت؛ لأن "السبت جُعِلَ لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت"، فالوصية الخاصة بالسبت ليست أعظم من الإنسان، وهكذا عادت الشريعة إلى غاية وجودها، فلم تصبح هي الغاية بل الإنسان هو الغاية، وراحة الإنسان هي غاية الوصية. هكذا يتجلى خيارُ الشخص أمام حجرية الوصايا كلها، تلك التي أعطاها رسول الرب بولس أسماء في غاية الأهمية: "خدمة الموت" (٢كو ٣: ٧)، و"خدمة الدينونة" (٢كو ٣: ٩).

صراع النصوص يعني فقدان غاية النصوص:

إن المبارزة بسيف القانون الكنسي في العصر الحديث، وخاصة في زماننا هذا، تجد مصدرها في العصر الوسيط، وربما بعد سقوط مدرسة الإسكندرية بسبب غزو الفرس لمصر في عام ٦١٨-٦٢٩ وهو الغزو الذي مهَّد للفتح العربي في ٦٣٩. إن مبارزات القانون الكنسي، أفقدت القانون غايته. والمثال على ذلك هو منع تعميد المرأة الطامث بقانون، المقصود منه منع دم الطمث من أن يختلط بمياه المعمودية، وليس لأن المرأة الطامث نجسة ... وهكذا...

هنا غاب الشخص، ولذلك غابت الغاية، وبالتالي أصبح النُّصُّ قيداً يمسك به من لا يعرف الإيمان ولا الحياة المسيحية.

ولعل أفضل مثل نقدمه على غياب غاية النص هو تحول القس النوبي زينون إلى التصوف الإسلامي، والذي صار يُعرف باسم ذي النون المصري، ثم الانسجام التام الذي حدث بين الرهبنة في القرن الثامن والتاسع وموجات التصوف التي عرفتها مصر في ذات الوقت. والدراسة الدقيقة المقارنة لأهم كتاب عن التصوف، وهو "طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي" تحقيق نور الدين شريبة – القاهرة ١٩٨٦، وكتاب بستان الرهبان الذي وفد إلينا من العراق أو سوريا، ونُقِل إلى العربية، يؤكد ليس فقط

التشابه، بل ذات النظام المؤسسي للحركات الصوفية، حيث المرشد هـو "الشـيخ"، وجمعُ الأقوال، وتأسيس وحدات من التلاميذ في المنشوبيات، أو المريدين في حلقـات التصوف. وهو موضوع يحتاج إلى عدة أبحاث قد لا تؤكد ولا تنفي ما ذكرته، وإنمـا القضية الأساسية التي أردت التنبيه عليها هي أن هناك نُسكاً بلا لاهوت. والفرق بـين العظات الروحية للقديس مكاريوس وبستان الرهبان هو فرقٌ ما بين السماء والأرض. كذلك الأمر بين ما ورد في سيرة ورسائل الأنبا أنطونيوس القبطية، وبين ما يُنسب إليه بعد ذلك في السيرة أو المصادر العربية، ولكن يهمنا أن نشير إلى أن رسـائل الأنبـا أنطونيوس العربية الـ ٢١ رسالة لا يوجد حولها أي شك، رغم افتقارنا إلى أصـلها القبطي.

ويمكننا أن نرى معالم النسك بلا لاهوت، في التعلـيم باقتنـاص الملكـوت بالأعمال الصالحة، وفي التأكيد والتشديد على فساد الطبيعة الإنسانية –وهو مطلوب– ولكن ليس في ظل غياب التعليم عن النعمة. وفي هذا الإطـار صـارت الممارسـات الطقسية هدفاً لا وسيلة. ولعلنا نلاحظ أن عبارات مثل: "الصوم والصلاة هما اللـذان رفعا إيليا إلى السماء"، أو "الصوم والصلاة هما اللذان خلَّصا دانيال من جُب الأسود"، هي عبارات تبدو صحيحة، ولكنها في الأخير عباراتٌ تردُّ الخلاص إلى جهد الإنسان، وهو عكس أنشودة الايمان في (عب ص ١١)، ولذلك يبدو أن مثل هذه الصـلوات بالذات، متأخرة زمنياً وليس فيها زخم الآباء الكبار.

في هذه الأجواء، أي في أجواء سيادة أو محورية الخلاص بالأعمـال، يسـود القانون، ويختفي دور الإيمان وإلهام العقائد التي أسَّست المسيحية مثل الشركة في حياة الثالوث.

وهنا يمكننا أن نشير إلى مثال معاصر لنا: كان أول ما نشره الأنبـا شـنودة أسقف التعليم هو مذكرة بعنوان "فلسفة الصمت عند مار إسحق"، ولم تُطبع إلا مرة واحدة بعد أن اعترض عليها د. وهيب عطا الله (الأنبا غريغوريوس). والمتأمل لعظات

ومقالات الأنبا شنودة أسقفاً ثم بطريركاً يجد أن محتواها يسيطر عليه نسك العصر الوسيط مع بعض شذرات غنوسية، أهمها الخلاص بالمعرفة. ومن هنا جاء الهجوم على مؤلفات الأب متى المسكين لِما فيها من محاولات دائبة لرد الحياة الرهبانية والمسيحية إلى أساسها اللاهوتي، وهو ما يرفضه تيار العصر الوسيط الذي يستقي من الثقافة المصرية بكل روافدها أكثر مما يستقي من الليتورجية الكنسية القبطية.

ولو درس تلميذ الأنبا شنودة الثالث الوفي، الأنبا بيشوي، لو درس الثيئوطوكيات في التسبحة السنوية، لوجدها تتغنى برفع اللعنة، وبالذات عن المرأة بسبب تجسد رب المجد، ولكنه النسك بلا لاهوت الذي حوَّل التعليم إلى دعوةٍ أخلاقية. ولو استمر الحال على ما هو عليه، فسوف نعود إلى العصر الوسيط بكل ما فيه من احتقارٍ للجسد وللمرأة، وسيادة للشريعة على الإيمان. ومثالنا على ذلك هو محاضرات البطريرك الأنبا شنودة، التي يظن فيها أنه يرد على الأب متى المسكين في شرح رسالة غلاطية. والنقطة أو العلامة الفارقة على سيادة مدرسة النسك بلا لاهوت هي هجومه على الأب متى المسكين ومؤاخذته على أنه يترجم التبرير إلى براءة، فيعترض البطريرك ويقول إن ما أخذناه هو العفو. والعفو هو لغة القانون، وهو غير المغفرة، حيث لا يذكر الله الخطايا بالمرة (ميخا ٧: ١٨-٢٠ مع عب ٨: ١٢ و١٠: ١٧)، الله لا يعفو، بل يغفر. والعفو في لغة القانون هو إقرار بأنك مجرم أو مذنب، ولكن صدر عفوٌ عنك. العفو لا يلغي الجرم، بينما التبرير يعني أن الله لا يحسب لنا خطايانا بالمرة، حسب لغة القداسات الأرثوذكسية كلها.

في النهاية، ليكن واضحاً لدينا أن المبارزة بالنصوص، إنما تخفي خلفها السقوط الدائم نحو:

* تجاهل أن الثالوث هو مصدر كل ما لدينا في الكنيسة من مواهب وعطايا.

* تجاهل أن الابن هو واحد مع الآب في الجوهر وفي المحبة، وهو يعطي الكل بالروح القدس.

* إنكار بنوة الإنسان لله في يسوع المسيح.

* إنكار مفاعيل السرائر الأبدية باسم القانون الكنسي.

* تحول شركتنا إلى كلمات لا إلى اختبار وممارسة وتذوُّق لحياة التبني.

والقائمة أكبر من الذي سجَّلته هنا، ولكن "لكل شيء تحت السماء وقت".

إنني أرى الجيل الصاعد من تحت ركام تعليم دام نصف قرن، سوف يستعيد زمام المبادرة، وسوف يقف للشهادة الحسنة، لأن الله حقاً "لم يترك نفسه بلا شاهد".

د. جورج حبيب بباوي